

الباب الأول

نشأة القرايين البشرية ومظاهر تقديمها

عند الوثنيين وموقف الإسلام منها

ويشتمل هذا الباب على ثمانية فصول:

- الفصل الأول: نشأة القرايين البشرية ومظاهر تقديمها.
- الفصل الثاني: القرايين البشرية عند السومريين والبابليين.
- الفصل الثالث: القرايين البشرية عند المصريين القدماء.
- الفصل الرابع: القرايين البشرية عند الهنود القدماء.
- الفصل الخامس: القرايين البشرية عند الكنعانيين والعمونيين والمؤابيين.
- الفصل السادس: القرايين البشرية عند اليونانيين والرومانيين.
- الفصل السابع: القرايين البشرية عند العرب في الجاهلية.
- الفصل الثامن: موقف الإسلام من نذر وتقديم القرايين البشرية. والتحقيق في رؤيا الخليل بذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام.

obeikandi.com

الفصل الأول

نشأة القرابين البشرية ومظاهر تقديمها

تمهيد:

إذا كنا قد تحدثنا في المدخل عن القرابين الحيوانية والنباتية فإن هناك قرابين من نوع آخر قدمها الإنسان إلى آلهته، إنها من نوع لا تشمله كلمة خروف أو شاة أو بقرة أو ثور أو حمل، من نوع آخر لا تشمله أية تسمية من هذه التسميات التي تطلق على هذه الحيوانات التي يأكلها الإنسان في العادة، إنها ذبائح وقرابين بشرية قدمها الإنسان إلى آلهته لاعتقاده - فيما يقول الدكتور جواد على - أنها زلفى محبة إلى نفوسها وأنها ستفيد المجموع وتنقذه من كثير من الأوبئة والأمراض وأنواع الشر والضرر.

ويقول أيضًا "إن كان الإنسان الحديث يتبرأ منها في الزمن الحاضر ويتنكر لها ويحاول تبرئة الأجداد من ممارستها قبل مئات من السنين فالتاريخ لا يستطيع أن يجد دليلاً يثبت تبرئة أكثر أديان شعوب العالم القديمة من تقديم هذا النوع من القرابين^(١).

يذكر ول ديورانت أن التضحية بالبشر قد أخذ بها الإنسان في كل الشعوب تقريباً، حيث ظهرت ها هنا يوماً وهنالك يوماً. فقد تم العثور في جزيرة كارولينا في خليج المكسيك على تمثال كبير معدني أجوف لإله مكسيكي قديم، ووجد فيه

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٦ ص ١٩٨.

رفات كائنات بشرية لاشك أنها ماتت بالحرق قرباناً لهذا الإله^(١)، وكلنا يسمع عن "مُلُخ"^(٢) الذى كان الفينيقيون والقرطاجينيون، وغيرهما من الشعوب السامية حيناً بعد حين يقدمون له القرابين من الإنسان.

ويذكر ول ديورانت أن عصرنا الحاضر قد شهد هذه العادة قائمة في روديسيا^(٣).

وجاء فى دائرة المعارف للبستاني أن أكثر شعوب الأرض القديمة قد قاموا بتقديم القرابين والذبائح البشرية، من أمثال الفينيقيين والمصريين وعرب الجاهليين والكنعانيين والصوريين والقرطاجيين والفرس والأثينيين والقدمونيين ويونان الجزائر والقارة والرومان، فكل هؤلاء وغيرهم سقطوا جميعاً فى إثم ذبح البشر فى عباداتهم^(٤).

نشأة القرابين البشرية وبداية تقديمها:

ويرجع كثير من العلماء بداية تقديم الإنسان للقرابين البشرية إلى عصر موغل فى القدم، وإن كان لا يعرف على وجه التحديد الشعب الوثنى الذى ابتدأ هذه العادة البربرية المتوحشة.

(١) وجاء فى جريدة الأهرام تحت عنوان "مقبرة للقرابين البشرية" أن علماء الآثار بجامعة شيكاغو الأمريكية قد اكتشفوا مقبرة جماعية بمدينة تيواناكو الجبلية فى بوليفيا والتى كانت عاصمة لإمبراطورية كبيرة ازدهرت بين عام ٣٠٠ ق. م وحتى ١٢٠٠ م، ويرجح العلماء أن هذه المقبرة كانت تستخدم لتقديم القرابين من البشر لإرضاء الآلهة ويرجع تاريخها إلى عام ٦١٠ ميلادية (أهرام الاثنين ١٣/١١/١٩٨٩ م).

(٢) هو إله الكنعانيين والذى كان يسمى (مولك)، أيضاً وستحدث عنه عند ذكرنا للقرابين البشرية عند الكنعانيين فى الفصل الخامس.

(٣) نشأة الحضارة ص ١١٣ - ١١٤ الجزء الأول من المجلد الأول من كتاب قصة الحضارة ترجمة د/ زكى نجيب محمود.

(٤) دائرة المعارف لبطرس البستاني المجلد الثامن ص ٣٠٢.

يذكر البستاني أن الأمة البادئة بهذا الفعل القبيح لا تزال مجهولة^(١).

كل ما هنالك أن بعض العلماء يربطون بين هذه العادة وبين عادة أكل لحوم البشر، يقول ول ديورانت "وربما كان منشأ هذه العادة - عادة تقديم القرابين البشرية - أكل البدائيين للحوم البشر فظنوا أن الآلهة تستمرئ من الطعام ما يستمرئون، ولما كانت العقيدة الدينية أبطأ تغيراً من سائر العقائد، ثم لما كانت الشعائر الدينية أبطأ تغيراً من العقائد نفسها، فقد امتنع الإنسان عن أكله للحوم الإنسان وبقي التقليد قائماً بالنسبة للآلهة"^(٢).

وهناك من يربط بين هذه العادة وبين طقوس الزراعة أو ما يعرف بالبذار.

يذكر السيرج. ج. فريزر أن من أعجب الأعاجيب ومن أعظم الحقائق أهمية في نماء المجتمع الإنساني أن فكرة البذار الإنسان كانت مشتبكة اشتباكاً لا تفصم عراه في ذهن الوثني في العصور القديمة مع فكرة التضحية الإنسانية، حيث كانت

(١) المصدر السابق، وإن كان البستاني يعود فيقول إن بعض الكتب الوثنية القديمة تذكر أن زحل أول من ذبح بشراً قرباناً وفي بعضها أنه ليكاون المصدر السابق نفس الصفحة.

(٢) نشأة الحضارة ص ١١٤، ويذكر الدكتور على عبد الواحد وافي أن من البواعث على أكل لحوم البشر اعتقاد الأكل أن تنتقل إليه البركة التي يتلبس بها من يقدم قرباناً إلى الآلهة من الأدميين، فعند السكان الأصليين فلوريدا (أمريكا الشمالية) لا يؤكل لحم البشر إلا في مناسبات تقديم القرابين البشرية، ولا يؤكل لحم إنساني إلا من هذه القرابين، وفي جزر هوايا (بولينزيا) لا يعد الإنسان من الحيوانات المأكولة اللحم، ولا يتناول الناس اللحم البشري في غذائهم العادي، وإنما يفعلون ذلك في المناسبات الدينية فحسب، فيتناولون قطعاً من الأضحية الإنسانية التي تقدم للآلهة بقصد التبرك بها والإفادة مما تلبست به في أثناء تقديمها من قوى وخصائص وصفات وفي نيحيريا كانت طقوس التضحية البشرية التي تقدم إلى الآلهة لا تعد كاملة إلا إذا أكل منها الرؤساء الدينيون وبعض طوائف الشعب. وفي عشائر الأرتك (السكان الأصليون للمكسيك) كانت تؤكل من كل أضحية بشرية الأجزاء التي انبثق منها الدم في أثناء تقديمها في المذابح الدينية.

وقد جرت العادة لدى السكان الأصليين لنيكارجوا (بأمريكا الوسطى) أن توزع الأضحية البشرية التي تقدم إلى الآلهة بنظام خاص على طبقات العامة ليطعموا منها: فيعطى قلبها لكبار رجال الدين، وأطرافها للملك، وفخذاها لمن أسرها، وأمعائها لمن يدقون طبول الحرب، ويفرق ما بقي منها على طبقات الشعب الأخرى غرائب النظم والتقاليد والعبادات ص ١٧٢ - ١٧٣.

خليطاً معقداً في ذلك العقل الذى كان يصنع الخرافات، ففي ذلك العالم القديم قبل عشرة آلاف من السنين كانت تقدم أضحية إنسانية كلما حان أوان البذر^(١).

ويذكر هـ. ج. ولز أن هذه التضحية الإنسانية أو بعض الآثار الباقية منها كانت تبدو في كل مكان بلغ فيه الإنسان بدايات الزراعة أو تخطاها ويستشهد على ذلك من خلال دراسته لهنود أمريكا أو سكان أمريكا الأصليين فيذكر أن الحياة الدينية لهذه الشعوب الأمريكية تظهر نفس الترابط بين فكرة البذر وبين التضحية بالإنسان وهو الترابط الذى عم حقبة كاملة بأسرها في تاريخ العالم القديم، ويرى أن هذه المجتمعات كالمدينات البائدة من أمد بعيد في العالم القديم يتجلى فيها ترابط وثيق بين التضحية بالإنسان وبين عمليات أوان البذر والمحصول^(٢).

وينتهى في كتابه "موجز تاريخ العالم" إلى أنه كان من عادة ذلك العالم السحيق قبل اثنتى عشر ألفاً من السنين إلى عشرين ألفاً من السنين خلت أنه كلما دارت الأيام دورتها وحل أوان البذر على شعوب العصور الوثنية القديمة حلت معه تضحية بشرية^(٣).

ويفسر ول ديورانت هذا الارتباط بأن الرجل كان يضحي به في وقت البذر حتى تخصب الأرض بدمائه^(٤).

(١) نقلاً عن هـ. ج. ولز في كتابه معالم تاريخ الإنسانية المجلد الأول (نشأة الكون والإنسان والحضارات) ص ١٠٨ ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد الطبعة الثالثة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٧ م.

(٢) المصدر السابق ص ١٠٨ - ١٣٧ - ١٧٦.

(٣) موجز تاريخ العالم ص ٥١.

(٤) نشأة الحضارة ص ١١٣ ويذكر ول ديورانت أن صورة الرجل الذى كان يضحي به في وقت البذر حتى تخصب الأرض بدمائه قد خفت بعض الشيء، فاكتمى بذبح الحيوان قرباناً - حتى إذا ما حل موسم الحصاد فسروه بأنه بعث للرجل الذى مات ضحية، فكانوا يخلعون عليه قبل موته وبعده جلال الآلهة، ويرى أن من هذا الأصل نشأت الأسطورة التى تروى في ألف صورة مختلفة كيف يموت الإله في سبيل شعبه، ثم يعود إلى الحياة بعدئذ ظافراً، ثم عمل الشعر على زخرفة السحر حتى يحوله ضرباً من اللاهوت، واختلطت الأساطير تروى عن الشمس بشعائر الزراعة اختلاطاً فيه تناسق وانسجام، بحيث أصبحت الأسطورة التى تروى عن موت الإله وعوده ولادته لا يقتصر =

ويفسره ويلز بأن الناس كانوا يذبحون رجلاً وينصرفون تاركين إياه ليحرس المحصول^(١).

ويذكر الدكتور على عبد الواحد وافي أن عشائر الهنود الحمر بمناطق الإكوادور كانوا يقدمون الأضاحي الإنسانية لآلهة النبات ليشبعوا نهمها لتبارك الأرض وتعمل على غزارة الغلات، وكذلك قبائل الأزتك وهم السكان الأصليون للمكسيك كانوا يقدمون معظم ضحاياهم الإنسانية^(٢) لنبات الذرة الذي يتألف منه غذاؤهم الرئيسى بعد أن يهشم جسم كل ضحية منها بحجرين ثقيلين يصوبان ضرباتهما المتتالية السريعة إلى ظهر الضحية وصدرها.

وقد جرت العادة لديهم أن تكون الضحية في مرحلة من العمر تشبه مرحلة نبات الذرة في الوقت الذى تقدم فيه، فتكون وليداً عقب ظهور النبات، ورجلاً بعد تمام نموه، وطفلاً أو مراهقاً أو شاباً فيما بين ذلك. ويعتقدون أن هذا التناسب بين سن الضحية والمرحلة التى يجتازها النبات يجعل لها أكبر الأثر فى نموه وغزارة محصوله^(٣).

ولقد كان من عادة الناس فى جبال كانجارا فى البنجاب أن يقدموا كل عام

= مدلولها على موت الشتاء وعودة الحياة إلى الأرض فى الربيع بل جاوزت ذلك إلى الانقلابين الآخرين: الصيف والخريف وما يعقب ذلك من قصر النهار وطوله، ذلك لأن حلول الليل لم يكن إلا جزءاً من هذه المأساة - فى تصورهم - فإله الشمس يموت كل يوم مرة ويولد كل يوم مرة، فكل غروب له بمثابة الاستشهاد على الصليب، وكل شروق هو بعث له ونشور ص ١١٣ فعقيدة صلب المسيح وأنه ضحية فداء وخلاصاً للبشر ترجع إلى أصول وثنية.

وقد بين زميلنا الدكتور أحمد عجيبة هذه الأصول الوثنية فى العقائد المسيحية بالتفصيل فى رسالته للماجستير "الخلاص المسيحى ونظرة الإسلام إليه" ١٩٨٥م ورسالة الدكتوراه "تأثر المسيحية بالأديان الوضعية" ١٩٨٧م كلية أصول الدين بطنطا.

(١) معالم تاريخ الإنسانية جـ ١ ص ١٥٤.

(٢) كانت هذه القبائل تقدم الضحايا الإنسانية بوفرة وفى مناسبات كثيرة حتى لقد بلغ ما يقدم منها لديهم زهاء خمسين ألفاً كل عام (غرائب النظم والتقاليد والعادات ص ٨١ دار نهضة مصر).

(٣) غرائب النظم والتقاليد والعادات ص ٨١.

إحدى فتياتهم قربانا لإحدى أشجار الأرز العتيقة، وكانت الأسر في القرية تتناوب فيما بينها تقديم هذه الضحية، ولكن هذه الشجرة قطعت - كما يقول فريزر - منذ سنوات قليلة^(١).

وكانت قبائل الهند والهند الصينية وبورما يقدمون الضحايا البشرية بقصد التأثير في نمو النبات وغازاة الغلات، فقبائل شأن وناجاس كانت تدس السم للضحايا وتوارى جثثها أراضى الحقول^(٢).

لكن الشعوب الوثنية القديمة لم تكن تقصر تقديم القرابين البشرية على وقت البذار فقط وإنما كان الناس يقدمونها في مناسبات أخرى.

بل إن ولز نفسه يذكر أنهم كانوا يقدمون الزوجات والأرقاء قربانا عند دفن رؤسائهم وأنهم كانوا يقتلون الرجال والنساء والأطفال كلما أمت بهم بعض محن الدهر ظانين أن الأرباب ظماء عطاش^(٣).

ويذكر موسكاتى أن القرابين الآدمية أو البشرية عند الوثنيين كانت تقدم في الكوارث العامة الهائلة على أنها أعظم قربان يمكن أن يقدمه الإنسان إلى الآلهة^(٤).

ويذهب الدكتور رشيد الناضورى إلى أن تقديم تلك التضحيات البشرية كان يغلب في حالة تواجد أخطار قاسية تهدد كيان مجتمع المدينة^(٥).

وبذلك فإنه ليس من اللازم أو من الضرورى أن يرتبط تقديم القرابين البشرية بفكرة البذار أو بمرحلة الزراعة.

(١) الغصن الذهبى ج ١ ص ٣٩٣ ترجم بإشراف الدكتور أحمد أبو زيد نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧١ م.

(٢) غرائب النظم والتقاليد والعادات ص ٨١ - ٨٢.

(٣) معالم التاريخ الإنسانية المجلد الأول ص ١٢٦.

(٤) الحضارات السامية القديمة ص ١٢٩.

(٥) المدخل في التطور التاريخي للفكر الدينى ص ١٤٢ دار مكتبة الجامعة العربية بيروت.

بل إن الدكتور وافي يذكر أن ظهور الزراعة كان له أثر كبير في القضاء على القرايين البشرية فيرى أنها هذبت كثيرًا من أخلاق الإنسان وطباعه فبفضلها كثرت كميات غذائه النباتي وقل مقدار استهلاكه من اللحوم، فزالت وحشيته واعتدل مزاجه وهدأت طباعه ورقت مشاعره، واستبدل بكثير من تقاليده الدموية وعقائده الوحشية نظمًا أخرى أدنى إلى الإنسانية وأقرب إلى مقتضيات العمران.

ويرى أنه بظهور الزراعة أخذت القرايين الإنسانية والحيوانية تقل شيئًا فشيئًا وأن القرايين النباتية المؤلفة من سنابل الغلال والخبز والفطائر وما إلى ذلك أخذت تحل محلها فأصاب غذاء الآلهة وطباعها من أسباب التهذيب والرقى ما أصاب غذاء الأناسى وطباعهم^(١).

ولعل هذا الكلام متأثر إلى حد ما بالتفسير التطوري للعقائد والشعائر حيث يرى أصحاب هذه النظرة التطورية أن الإنسان قد ترقى في عقيدته من التعدد والوثنية إلى التوحيد والإيمان وترقى أيضًا في ممارسته للشعائر والعبادات حيث بدأ بتقديم القرايين البشرية ثم ارتقى إلى تقديم القرايين الحيوانية والنباتية.

بدليل أن الدكتور وافي يفسر كلامه هذا بقوله: "غير أن ارتقاء التفكير الدينى، وإصلاح ما علق به في مراحل الأولى من خطأ في فهم الآلهة وصفاتهم وما يتطلبه رضاهم، ونزعة المجتمعات إلى تنزيه معبوداتها عن القسوة والتشفى وعن الحاجة إلى ما يقدمه إليهم بنو الإنسان وجعلهم أغنياء عن العالمين، واتساع نطاق العلوم وانتشار الشرائع السماوية والكتب المقدسة... كل أولئك قد عمل على احترام الحياة الإنسانية ففضى على هذا الشكل الوحشى من التضحية واستبدل به أشكالاً أخرى لا تنبؤ عن الخلق الصحيح، ولا تتنافر مع مقتضيات العمران، فظهرت حينئذ التضحية ببعض أنواع الحيوان كالبقرة والغنم والماعز، وبعض أنواع الطيور كالدجاج والأوز والبط، وظهرت أنواع أخرى من القربان لا تقتضى إهراقاً للدم

(١) غرائب النظم ص ٧٧ بحوث في الإسلام والاجتماع ص ١٢٠ - ١٢١ دار نهضة مصر.

كالتقرب بما يستخرج من الحيوانات والتقرب بالنبات كالحنطة وسنابل القمح والدقيق الممزوج بالزيت والتقرب بما يصنع من النبات كالحبز والفطير^(١).

ويذكر ول ديورانت أن الشعائر الدينية قد تغيرت بفضل تطور الأخلاق، بحيث طقق الآلهة يقلدون عبادهم في الزيادة من اصطناع الرقة، واستسلموا للوضع الجديد. فقبلوا لحم الحيوان طعامًا بدل لحم الإنسان، ثم مضى الزمان في تقدمه، فحرمت الآلهة حتى هذا الحيوان لأن الكهنة آثروا أنفسهم بالطعام الشهى، وأخذوا يأكلون كل ما يمكن أكله من الضحية المقدمة، ثم يهبون الآلهة على مذبح القربان أمعاء الضحية وعظامها^(٢).

فأصحاب هذه النظرة التطورية يريدون أن يتوصلوا من خلال نظرية التطور إلى أن تقديم القربان البشرية بدأ مع الإنسان وأن هذه القربان تمثل المرحلة الأولى من مراحل تقديم القربان إلى الإله أو الآلهة وأن كلا من القربان الحيوانية والقربان النباتية جاءت في مرحلة تالية لها أو مرحلة متأخرة عنها وأنها كانت بديلاً لها.

فالقائلون بتطور العقائد يرون أن الإنسان قد ترقى في العقائد كما ترقى في العلوم والصناعات، فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى، وكذلك كانت علومه وصناعاته، فليست أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الأديان والعبادات، وليست عناصر الحقيقة في واحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة في الأخرى^(٣).

بل إنه ينبغي - فيما يقول العقاد - أن تكون محاولات الإنسان في سبيل الدين (هكذا) أشق وأطول من محاولاته!! في سبيل العلوم والصناعات^(٤).

(١) المصدر السابق ص ٧٦ - ٧٧.

(٢) نشأة الحضارة ص ١١٤.

(٣) راجع عباس محمود العقاد: الله كتاب في نشأة العقيدة الإلهية ص ١٣ الطبعة السادسة دار المعارف بمصر ١٩٦٩م.

(٤) المصدر السابق.

وواضح سواء من رأى العقاد نفسه أو مما نقله من آراء علماء الدين المقارن^(١) أن البشر هم الذين ينشئون عقائدهم بأنفسهم ومن ثم تظهر فيها أطوارهم العقلية والعلمية والحضارية والسياسية، وأن التطور من التعدد إلى الثنية إلى التوحيد تطور زمنى مطرد على الإجمال.

وهذا واضح تمامًا من العبارة الأولى في تقديمه لكتابه "الله" حيث يقول: "موضوع هذا الكتاب نشأة العقيدة الإلهية، منذ اتخذ الإنسان ربا إلى أن عرف الله الأحد، واهتدى إلى نزاهة التوحيد"^(٢).

والذى لا شك فيه أن الله سبحانه يقرر في كتابه الكريم، تقريرًا واضحًا جازمًا، شيئًا آخر غير ما يقرره صاحب كتاب "الله" متأثرًا فيه بمنهج علماء الأديان المقارنة، وأن الذى يقرره الله - سبحانه - أن آدم وهو أول البشر عرف حقيقة التوحيد كاملة، وعرف نزاهة التوحيد غير مشوبة بشائبة من التعدد والثنية، وعرف الدينونة لله وحده باتباع ما يتلقى منه وحده، وأنه عرف بنيه بهذه العقيدة، فكانت هناك أجيال فى أقدم تاريخ البشرية لا تعرف إلا الإسلام دينا وإلا التوحيد عقيدة، وأنه لما طال الأمد على الأجيال المتتابعة من ذرية آدم انحرفت عن التوحيد.. ربما إلى الثنية وربما إلى التعدد.. ودانت لشتى الأرباب الزائفة.. حتى جاءها نوح عليه السلام بالتوحيد من جديد.. وأن الذين بقوا على الجاهلية أغرقهم الطوفان جميعًا، ولم ينج إلا المسلمون الموحدون الذين يعرفون "نزاهة التوحيد" وينكرون التعدد والثنية وسائر الأرباب والعبادات الجاهلية^(٣).

والذى لا شك فيه أيضًا أن هذا شىء، والذى يقرره علماء الأديان المقارنة ويتابعهم فيه مؤلف كتاب "الله" شىء آخر.. وبينهما تقابل تام فى منهج النظر

(١) راجع المصدر السابق من ص ١٣ - ٤٠.

(٢) المصدر السابق ص ٥.

(٣) راجع سيد قطب: فى ظلال القرآن ج ١٢ ص ١٨٨٤ - ١٨٨٥ دار الشروق الطبعة العاشرة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

نظريات يعارض بعضها بعضاً، فهي ليست الكلمة النهائية في مباحث البشر
الفانين^(١)!

فالاستدلال على ديانة الإنسانية الأولى بديانة الأمم المنعزلة المتخلفة عن ركب
المدنية، مبنى على افتراض أن هذه الأمم كانت منذ بدايتها على الحالة التي وصل
إليها بحثنا، وأنها لم تمر بها أدوار متقبلة، وهو افتراض لم يقم عليه دليل، بل الذي
أثبتته التاريخ واتفق عليه المتقبون عن آثار القرون الماضية، هو أن فترات الركود
والتقهقر التي سبقت مدنياتها الحاضرة كانت مسبقة بمدنيات مزدهرة، وأن هذه
المدنيات قامت بدورها على أنقاض مدنيات بائدة، قرية أو بعيدة، في أدوار تتعاقب
على البشرية، كما تتعاقب الفصول السنوية على الطبيعة بحيث يصبح من العسير أن
نحكم بصفة قاطعة بأيها بدأت دورة الزمان وليس تعيين أحد الأمرين للابتداء
الحقيقي بأثبت تاريخياً من مقابله^(٢).

فكذلك الأمر - كما يقول الدكتور محمد عبد الله دراز - في شأن العقائد الدينية:
حيث إنه من الممكن أن تكون الخرافات القديمة بداية ديانات كما يمكن أن تكون
نتيجة تحلل وتحريف لديانة صحيحة سابقة، مزقت أهلها الحروب، أو أفسدتهم
الآفات الاجتماعية، فقلت عنايتهم بأصول دينهم، وتلقوا بالتسليم والقبول كل ما
سمعوه من أفواه الأدعياء والدجالين. وشاعت بينهم هذه الروايات وتوارثوها
حتى أصبحت سنناً مقدسة^(٣).

وليس المجال هنا الرد على التطوريين وغيرهم من الباحثين في نشأة الأديان وإنما
سنفرد لذلك بحثاً مستقلاً إن شاء الله^(٤).

(١) المصدر السابق ص ١٨٨٥.

(٢) د/ محمد عبد الله دراز: الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ص ١١٤ مطبعة السعادة
١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م.

(٣) المصدر السابق.

(٤) نقوم بتوفيق الله بكتابة بحث مستقل حول نظريات الغربيين ومذاهبهم في مفهوم ونشأة الدين
وموقف الإسلام.

وإنما نكتفى هنا بأن نشير إلى تلك الحقيقة، حقيقة أن أول عقيدة عرفت في الأرض هي الإسلام القائم على توحيد الدينونة والربوبية والقوامة لله وحده. تقودنا إلى رفض كل ما يخطط فيه من يسمونهم "علماء الأديان المقارنة" وغيرهم من التطوريين الذين يتحدثون عن التوحيد بوصفه طوراً متأخراً من أطوار العقيدة. سبقته أطوار شتى من التعدد والتثنية للآلهة. ومن تأليه القوى الطبيعية وتأليه الأرواح، وتأليه الشمس والكواكب.. إلى آخر ما تخطط فيه هذه "البحوث" التي تقوم ابتداء على منهج موجه بعوامل تاريخية ونفسية وسياسية معينة، يهدف إلى تحطيم قاعدة الأديان السماوية والوحي الإلهي والرسالات من عند الله، وإثبات أن الأديان من صنع البشر، وأنها من ثم تطورت بتطور الفكر البشرى على مدار الزمان^(١)!

وإذا كان هذا فيما يتعلق بالعقائد فكذلك الأمر فيما يتعلق بالعبادات والشعائر.

حيث إن الله سبحانه إذا كان قد أهبط آدم عليه السلام إلى الأرض وأنزل معه العقيدة التي يؤمن بها فإنه أيضاً أنزل معه العبادة التي يعيش عليها فعلمه كيف يتعبد ربه ويتقرب إليه بمثل ما علمه كيف يؤمن به ويوحده ولا يشرك به شيئاً.

وليس هناك نص في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية يفيد من قريب أو من بعيد بأن الله قد أوحى إلى آدم أو إلى غيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً، وطلب منهم أن يقدموا له قرباناً من البشر، فيما عدا الخليل إبراهيم حينما أمره ربه أن يذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام لكن ذلك لم يتم واقتداه ربه بذبح عظيم^(٢).

بل إن ابنى آدم حينما قص علينا القرآن الكريم نبأهما بالحق بين لنا أنهما قدما لله قرباناً ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ

(١) في ظلال القرآن جـ ١٢ ص ١٨٨٢.

(٢) سنفصل القول بإذن الله في هذا الموضوع في الفصل الأخير من هذا الباب.

مِنَ الْآخِرِ^(١)، ومع أن القرآن الكريم لم ينص صراحة على نوعية هذا القربان إلا أن نصوصه تنفى تمامًا وتستبعد نهائيًا أن يكون هذا القربان من البشر، فهما ابنا آدم لصلبه وهذا القتل كان أول حادث قتل على وجه الأرض والمقتول كان أول من تزهق روحه ويسفك دمه من بنى الإنسان ويتجلى هذا في حيرة القاتل وجهله وعدم معرفته كيف يدفن أخاه ويوارى سواته حتى بعث الله له الغراب.

يقول تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورَىٰ سَوْءَ أَخِيهِ ۖ قَالَ يُوزِلُنِي أَحْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرَىٰ سَوْءَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ^(٢)﴾.

أخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن عطية قال: لما قتله ندم فضمه إليه حتى أروح وعكف عليه الطير والسباع تنتظر متى يرمى به فتأكله وكره أن يأتي به آدم عليه الصلاة والسلام فيحزنه، وتخير في أمره إذ كان أول ميت من بنى آدم عليه السلام، فبعث الله تعالى غرابين قتل أحدهما الآخر وهو ينظر إليه ثم حفر بمنقاره وبرجله حتى مكن له ثم دفنه برأسه حتى ألقاه في الحفرة، ثم بحث عليه برجله حتى واره^(٣).

ويذكر القرطبي أن ابن آدم هذا كان أول من قتل، وأن في بعث الله للغراب حكمة، ليرى ابن آدم كيفية المواراة، وهو معنى قوله تعالى "ثم أماته فأقبره" فصار فعل الغراب في المواراة سنة باقية في الخلق، فرضا على جميع الناس على الكفاية، من فعله منهم سقط فرضه عن الباقيين وأخص الناس به الأقربون الذين يلونه، ثم الجيرة، ثم سائر المسلمين^(٤).

(١) المائة: ٢٧.

(٢) المائة: ٣١.

(٣) الألوسى: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ص ١١٥ - ١١٦ نشر مكتبة دار التراث القاهرة.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ج ٦ ص ١٤١ - ١٤٣.

وبهذا يكون ابن آدم الذى قتل أول مقتول من بنى الإنسان حيث إنهما ولداه لصلبه، ولا عبرة بما يقال من أن ابنى آدم هذين كانا رجلين من بنى إسرائيل فهو قول ضعيف ومخالف لقول الجمهور: فقد روى عن الحسن البصرى والضحاك أنهما قالا إن ابنى آدم اللذين قربا قربانا ما كانا ابنى آدم لصلبه، وإنما كانا رجلين من بنى إسرائيل. وأن الله ضرب بهما المثل فى إبانة حسد اليهود - وكان بينهما خصومة فتقربا بقربانين ولم تكن القرابين إلا فى بنى إسرائيل وكان آدم أول من مات^(١).

وعلق ابن كثير بأن هذا غريب جداً وفى إسناده نظر ونقل عن عبد الرزاق عن معمر عن الحسن قوله قال رسول الله ﷺ "إن ابنى آدم عليه السلام ضربا لهذه الأمة مثلاً فخذوا بالخير منهما" ورواه المبارك عن عاصم الأحول عن الحسن قال قال رسول الله ﷺ "إن الله ضرب لكم ابنى آدم مثلاً فخذوا من خيرهم ودعوا شرهم"^(٢).

وقال ابن عطية: إن ما روى عن الحسن والضحاك وهم، فكيف يجهل صورة الدفن أحد من بنى إسرائيل حتى يقتدى بالغراب؟ والصحيح أنها ابناه لصلبه، هذا قول الجمهور من المفسرين وقاله ابن عباس وابن عمر وغيرهما^(٣).

وقال الفخر الرازى: إن القول بأنهما ابنا آدم لصلبه هو الذى اختاره أكثر أصحاب الأخبار، وفى الآية أيضاً ما يدل عليه لأن الآية تدل على أن القاتل جهل ما يصنع بالمقتول حتى تعلم ذلك من عمل الغراب، ولو كان من بنى إسرائيل لما خفى عليه هذا الأمر، وهو الحق والله أعلم^(٤).

(١) راجع تفسير الفخر الرازى ج ١١ ص ٢٠٤ تفسير القرطبى ج ٦ ص ١٣٣ تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ٤٦.

(٣) تفسير القرطبى ج ٦ ص ١٣٣.

(٤) التفسير الكبير ج ١١ ص ٢٠٤.

وذكر ابن كثير أن المفسرين متفقون على أن هذين ابنا آدم لصلبه كما هو ظاهر القرآن وكما نطق به الحديث: فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ "لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل"^(١).

هذا بالإضافة إلى إجماع المفسرين على أن أحدهما كان راعياً صاحب غنم فقرب أكرم غنمه وأسمنها وأحسنها، طيبة بها نفسه، وأن الآخر كان صاحب حرث قرب أشر حرثه، غير طيبة بها نفسه، فتقبل من الأول ولم يتقبل من الآخر^(٢).

معنى ذلك أن قربان الأول كان حيوانياً وقربان الثانى كان نباتياً ولم يذكر واحد من المفسرين بل لم يدر بخلده أن يذكر أن أحدهما قرب قرباناً من البشر.

كذلك فإننا نستأنس بما ورد في سفر التكوين في هذا وإن كنا لا نثق بتوراة اليهود على وجه العموم لكن هذا لا يمنع من إيراد وقبول ما لا يتعارض مع القرآن الكريم والسنة النبوية والإجماع.

جاء في سفر التكوين "وعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قايين، وقالت اقتنيت رجلاً من عند الرب، ثم عادت فولدت أخاه هابيل، وكان هابيل راعياً للغنم وكان قايين عاملاً في الأرض وحدث من بعد أيام أن قايين قدم من أثمار الأرض قرباناً للرب، وقدم هابيل أيضاً من أبكار غنمه ومن سمانها، فنظر الرب إلى هابيل وقربانه ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر"^(٣).

(١) وقد أخرجه الجماعة سوى أبى داود من طرق عن الأعمش، وروى عن عبد الله بن عمرو أنه كان يقول إن أشقى الناس رجلاً لابن آدم الذى قتل أخاه ما سفك دم في الأرض منذ قتل أخاه إلى يوم القيامة إلا لحق به منه شر وذلك أنه أول من سن القتل، راجع تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ٤٥ - ٤٦ نشر دار التراث القاهرة.

(٢) راجع التفاسير المشار إليها آنفاً في هذه النقطة.

(٣) تكوين ٤: ١ - ٥.

وبناء على ذلك فإن الرأى الذى يذهب إلى أن الإنسان قد ابتدأ عبادته بتقديم القرابين البشرية إلى الإله هو قول غير صحيح ولم يستند أصحابه إلى دليل.

والرأى الذى نرجحه ونستريح إليه من خلال ما عرضناه آنفاً وما سنعرضه فى هذا الكتاب بشأن نشأة القرابين البشرية وبداية تقديمها هو أن هذه القرابين قد عرفت لدى كثير من الشعوب الوثنية القديمة، وشاع تقديمها إلى الآلهة التى عبدها الإنسان من دون الله سبحانه، وذلك فى الفترات التى كانت ترتكس فيها البشرية إلى الشرك والوثنية، وترتد عن التوحيد والإيمان، وتتيه فى ظلمات الجهل وتنغمس فى مستنقعات الضلال، بعد أن يتقادم عهد الناس بالنبوة، ويطول أمدهم برسالة السماء، فينحرفون عن الوحي الصحيح إلى خرافات الكهان، وضلالات الشيطان.

مظاهر تقديم القرابين البشرية

كانت القرابين البشرية تقدم على اختلاف فى أنواعها باختلاف الأمم والشرائع وتبعاً للأحوال المحيطة بهذا القربان والأسباب الداعية إليه، فقد كانت هذه القرابين - كما سنرى - أحياناً من الإناث وتارة من الأطفال، وتارة من الشبان والشيوخ.

غير أنه يظهر من استقراء هذه الحالات عند مختلف الأمم وفى شتى مراحل التاريخ - كما يقول الدكتور وافي - أن معظم الضحايا الإنسانية أو القرابين البشرية كانت تقدم من طائفتين: من الأطفال ذكورهم وإناثهم ولاسيما أول من يولد منهم لأبويه، ومن البنات الأبقار.

ويظهر كذلك أن معظم من كان يضحي به من غير هاتين الطائفتين كان يؤخذ من أسرى الحرب والرقيق المذنبين، إلا أنه فى أحوال غير قليلة كانت الضحايا تقدم

من طبقات راقية من الشعب^(١) فكثيرًا ما قدمت أمم ملوكها أنفسهم قربانًا لمعبوداتها^(٢).

ففى الغابات النائية فى كمبوديا كان يعيش ملكان غامضان يعرفان باسم ملك النار وملك الماء، وكانت شهرتهما قد طبقت الآفاق فى جنوب شبه جزيرة الهند الصينية، وكانا يعيشان فى سبعة أبراج تجثم فوق سبعة جبال بحيث ينتقلان بينها كل عام واحدًا بعد الآخر، ويأتيهما الناس فى خلصة ويلقون بين أيديهما كل ما يحتاجون إليه من قوت، ويستمر تولى الملك لهذا المنصب سبع سنوات وهى الفترة اللازمة للعيش فى الأبراج السبعة واحدًا إثر الآخر، ولكن الكثيرين منهم كانوا يموتون قبل أن تنتهى مدتهم، وكما هو الحال بالنسبة لكثير من الملوك المقدسين، كان لا يسمح لملك النار أو ملك الماء أن يموت أحدهما ميتة طبيعية لأن ذلك يحط من شأنه وقدره.

وعلى ذلك فحين يقع أحدهما فريسة مرض عضال، يجتمع كبار السن من الرجال للتشاور حتى إذا تأكد لهم أنه لن يبرأ من علته، طعنوه حتى الموت، ثم تحرق جثته ويجمع الرماد المتخلف بخشوع وورع، ويقدسه الناس لأعوام خمسة، ولكنهم يعطون لأرملته قدرًا من هذا الرماد، تحتفظ به فى أنبيق (وهو عبارة عن قارورة صغيرة مزخرفة ومقدسة يحفظ فيها رماد جسد الميت بعد حرقه حسب التقاليد عند

(١) كانت الديانة الفارسية الأولى (أو الشعبية القديمة) فى أول أمرها تأمر بتضحية أفراد بنى الإنسان للتقرب من الآلهة وقد تحدث هيرودوت عن هذه الشعيرة فذكر أن الملكة "أميسترلس" حين صارت عجوزًا أمرت بدفن أربعة عشر طفلًا من أبناء (النبلاء) أحياء ليكون ذلك قربانًا عنها، ليقربها من الآلهة، ولكن يظهر أن هذه القسوة قد تلطفت فاستبدلت تضحية الإنسان بتضحية بعض الحيوانات كالثيران والكباش على أن يكون ذلك على يد جمعية مؤلفة من رجال الدين تنعقد للإشراف على الضحايا (د/ محمد غلاب الفلسفة الشرقية ص ١٨١ نشر مكتبة الأنجلو المصرية الطبعة الثانية، د/ نجيب ميخائيل حضارات الشرق القديم (العراق وفارس، ص ٤٣٢ - ٤٣٣ الطبعة الثانية ١٩٦٧ م دار المعارف.

(٢) غرائب النظم والتقاليد ص ٧٦.

بعض الشعوب) يتعين عليها أن تحمله فوق ظهرها كلما ذهب لتبكي زوجها الراحل على قبره^(١).

فلم يكن الأمر إذن تضحية بأى شخص وضع أو منبوذ بل كان كما جرى العرف تضحية بشاب مختار أو فتاة مختارة، وكان المختار في غالب الأحيان فتى يعامل باحترام عميق وتبجيل عظيم حتى ساعة التضحية به، وكان يعد في غالب أمره "ملكاً ربا" كتبت عليه التضحية، ثم أصبحت كل تفاصيل قتله من بعض الطقوس المقدسة، التي يقوم عليها الكهول (العارفون) ويقرها ما جرى عليه العرف المتكرر على امتداد العصور^(٢).

فالسكان الأصليون لأفريقيا الوسطى وغربى أفريقيا كانوا يقدمون ضحاياهم البشرية في الغالب من البنات العذارى اللاتي كن يربين لهذا الغرض في منازل الملوك والرؤساء ويتعهدهن رجال الدين ويتولون تقديمهن للآلهة^(٣).

وفي أفريقيا أيضاً كانت الضحية في الغالب شخصاً أشقر اللون (عدو الشمس) وهو اللون الذى يفضلهُ الإله (فارو) فقبيلة (البامبارا) كانت تعد الوليد الأشقر اللون نجساً وكانوا في العصور الأولى يذبحونه قرباناً في الأعياد الكبيرة، وفي فناء البيت كان يوضع الكرسي الخاص برب الأسرة مرتكزاً على جثة شخص أشقر^(٤).

(١) راجع جيمس فريزر: الغصن الذهبي جـ ١ ص ٣٧٨ - ٣٨٠.

(٢) معالم تاريخ الإنسانية، المجلد الأول ص ١٠٨.

(٣) د/ على عبد الواحد وافي، غرائب النظم والتقاليد والعادات ص ٨١.

(٤) الديانات في أفريقيا السوداء ص ٥٦ - ٦٠ نقلاً عن أستاذى الكبير الدكتور/ بركات عبد الفتاح

دويدار: دراسة في الأديان ص ٦٦ طبعة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

كما كانت العادة عند قبائل (الدوجون) قديمًا أن يضحوا بشخص أشقر اللون في احتفالهم الديني بتجديد الكون^(١).

وفي قبائل كودولو كانوا يشترون ضحايا من الرقيق ولكنهم يتعهدونهم بأحسن أنواع المأكّل والمشارب وتقدم لها جميع ما تتوق إليه نفوسهم حتى تسمن وتزكو جسومهم فتقربها عين الآلهة وتشبع نهمها^(٢).

وقد يعود المرء بالذاكرة إلى أوان سحيق يتجاوز فجر التاريخ قبل ٣٠٠٠ أو ٤٠٠٠ سنة خلت - كما يقول ولز - في مرتفعات "ويلتشر" في وقت السحر من أحد أيام منتصف الصيف وقد أخذت نيران المشاعل في الشحوب أمام الضوء المتزايد ثم تطوف بخيال الإنسان فكرة غامضة عن موكب يسير في الطريق الحجري، موكب من كهنة ربما كانوا في ثياب غريبة المنظر من الجلود والقرون وأقنعة منقوشة نقوشًا مروعة، وفي الموكب رؤساء في جلود مزينة بعمود من الأسنان وهم يحملون الرماح والبلطات وعلى رؤوسهم شعر أثيث غزير تمسكه دبائيس من العظم، وفيه أيضًا نساء يكتسبن بالجلود أو ثياب الكتان، وجمهور عظيم من رجال ذوى رؤوس كثة الشعور وأطفال عراة.. واجتمعوا من أماكن كثيرة سحيقة، ويعم الجميع ضرب من الجذل الذي يحسه الناس في الأعياد.

ومن بين صفوف هذا الجمهور العظيم تسير الضحايا البشرية ذليلة كسيرة تقاد ولا معين لها وهى ببصرها شاخصة إلى المذبح البعيد المتصاعد منه الدخان، الذى عنده يقضى عليها لكى تجود المحاصيل وتتكاثر القبيلة^(٣).

وإذا لاحظنا أن المناسبات التى كانت تقتضى تقديم القرابين البشرية كانت كثيرة الحدوث والتكرار وأن الإحجام عن التضحية عند وجود ما يقتضيه كان فى نظر

(١) المصدر السابق.

(٢) غرائب النظم ص ٨٢.

(٣) معالم تاريخ الإنسانية ج ١ ص ١٢٦.

الوثنيين شيئاً إذا تنفطر منه السماوات ويثير غضب الآلهة ويصيب نكاله جميع أفراد المجتمع الذى حدث فيه التقصير^(١).

إذا لاحظنا هذا كله سهل علينا أن ندرك كيف كانت القرابين البشرية عامل إجرام ودمار وكيف جرت هذه العبادة الدموية على بنى الإنسان كثيرًا من المصائب والويلات^(٢)، فكم أثلكت أمهات ويتمت أطفالاً وأيمت نساء وكم ذهبت في سبيلها أرواح بريئة طعمة للنيران وغذاء للسماك وكم حملت الآباء على تقديمهم أولادهم قرباناً للآلهة، وإزهاق أرواحهم بأيديهم، وكم دعتهم إلى وأد بناتهم أو إغراقهن ابتغاء مرضات المعبودات^(٣).

وقد كانت مراسم التضحية تتغير حسب الظروف ففي أفريقيا مثلاً كانت هكذا:

(١) من بين الاعتقادات التى جعلت الوثنيين يقدمون القرابين البشرية إلى آلهتهم ذلك الاعتقاد الذى اعتقده الأفريقى وهو أن إنهاء حياة يكون سبباً فى امتداد حياة أخرى، فكلمة قربان فى لغة "الدوجون" مشتقة من كلمة معناها "إعادة الحياة" فالمرض وارتكاب المحرمات تسبب فقدان بعض تلك القوى، ولا يمكن استعادتها إلا إذا سال دم الضحية، وصبغ به المحراب، أو سكب عليه خبيصة مطبوخة من الذرة، وهذه الوسيلة يستعيد المتعبد تلك القوى التى ضاعت منه، كما تستعيد سلامة قواهم، لأن القرابين والضحايا تحدث شركة روحية بين الأحياء والأموات. والمثل السائر بينهم هو (أن كل فرد يمنح الجميع ويأخذ من الجميع).

والأفريقى تبعاً لعقيدته هذه كما يقول أستاذى الدكتور بركات عبد الفتاح دويدار - لم يخل بشيء فى سبيل هذا الهدف فلم يقف بالتضحية عند الحيوان، بل نرى التضحية بالبشر كانت شائعة. وكان المضحي به يتقبل ذلك عن طيب خاطر اعتقاداً منه أن روحه ستحل بعد قتله فى جسم شخص خطير المكانة، وبذلك فإن هذا الاعتقاد قد جعل التضحية بالنفس والولد شيئاً سهلاً فى سبيل إرضاء الآلهة أو الجماعة وطمعاً فى حياة أفضل بعد مفارقة هذه الحياة. راجع دراسة فى الأديان ص ٦٥ والديانات فى أفريقيا ص ٥٣ نقلاً عنه.

(٢) حسبنا دليلاً على ذلك أن قبائل الأرتك وحدها (وهم السكان الأصليون لبلاد المكسيك) كانت - كما يقول الدكتور وافي - إلى عهد غير بعيد تقدم من الضحايا الإنسانية ما يبلغ عدده زهاء خمسين ألفاً كل عام.

(٣) راجع غرائب النظم ص ٧٥-٧٦.

١ - فى المشاكل الخاصة بالحكم كان الشخص يشطر عرضاً إلى شطرين بحبل يشد حول بطنه وذلك فى حضور الملك الذى يفرض عليه أن يحتفظ بسكونه، دون أن يبدى حراكاً، ثم يحمل الشطر الأسفل فيلقى فى النهر قرباناً للإله (فارو) وأما الرأس فتدفن تحت عرش الملك.

٢ - وفى الأزمات المالية يغرز فى حلق الشخص عصا من الغاب الهندى فتنفذ إلى بطنه.

٣ - وفى حالة موت عدد كبير من أسرة واحدة يتقدم رب الأسرة إلى الملك ليحصل منه على إذن بتضحية شخص أشقر، فإذا ذبح هذا أخذ لسانه وأنفه وعينه لتأكلها الأسرة، وأما الجمجمة فتدفن فى فناء المسكن^(١).

تقديم القرابين البشرية إلى الآلهة البشرية:

هذا وكانت القرابين البشرية تقدم إلى الآلهة من بنى البشر الذين اعتقد الناس أن روح الله تجسدت فيهم، فبجانب ما كان يقوم به الوثنيون من تقديم القرابين البشرية لأصنامهم وأوثانهم من الحجارة والتماثيل، أو غيرها ممن زين لهم الشيطان أنهم آلهة وتصورها فى صورة الحيوان أو النبات أو الماء أو الهواء أو الشمس أو القمر أو الشجر.

بجانب ذلك كانوا فى نفس الوقت يقدمون لمن اعتقدوا ألوهيتهم من بنى الإنسان قرابين بشرية.

(١) الديانات فى أفريقيا السوداء ص ٥٦ نقلاً عن دراسة فى الأديان ص ٦٥ - ٦٦، ويذكر الدكتور وافي أن من طرق تقديم تقديم القرابين البشرية طريقة الوأد وهى دفن الضحية حية، واتبعت هذه الطريقة عند شعوب كثيرة منها بعض قبائل العرب فى الجاهلية، وطريقة إغراق الضحية فى الأنهار المقدسة (كما جرت العادة عند قدماء المصريين) وطريقة خنقها، وطريقة سد فمها بالطين، وطرق تعذيبها بمختلف الوسائل، وطريقة إلقائها من شاهق، وطريقة انتحارها عن اختيار منها بترديها من قمة عالية إلى غير ذلك من الطرق (غرائب النظم ص ٧٩).

ففى جزر الماركاس مثلاً وجزر واشنجتن كما يقول جيمس فريزر - كانت توجد فئة من الناس يتمتعون بصفات الألوهية والقداسة أثناء حياتهم، وكان المظنون أنهم يملكون بعض القوى الخارقة التى يستخدمونها للسيطرة على الطبيعة، وأنه باستطاعتهم على هذا الأساس أن يملأوا الأرض بالمحصول الوافر أو يحيلوها إلى صحراء خاوية جرداء مجدبة، أو أن يسلطوا المرض والموت على الناس.

ومن أجل ذلك كانوا يقدمون لهم القرابين البشرية لدرء خطر نقمتهم ولعتهم، ولم تكن هناك أعداد كبيرة منهم وإن كان يوجد واحد أو اثنان على الأكثر فى كل جزيرة، وكانوا يعيشون فى عزلة غامضة، وكانت سلطتهم فى بعض الأحيان - ولكن ليس دائماً - سلطة متوارثة^(١).

وقد قدم أحد المستشرقين وصفاً لأحد هؤلاء الآلهة البشرية عن طريق الملاحظة الشخصية فذكر "أن ذلك الإله كان رجلاً طاعناً فى السن، يعيش فى منزل كبير، يحيط به سياج مرتفع، وقد أقام له داخل المنزل مذبحاً غريباً، كما كانت تتدلى من أعمدة البيت ومن الأشجار التى تحيط به هياكل بشرية، نكست رؤوسها نحو الأرض، ولم يكن يسمح لغير الأشخاص المعينين لخدمة ذلك الإله أن يتخطوا أسياج البيت، وإن كان يسمح للناس العاديين بالدخول فى المنزل فى الأيام التى تقدم فيها الأضحيات والقرابين البشرية.

لقد كان نصيب ذلك الإله البشرى من القرابين يفوق نصيب غيره من الآلهة، وكثيراً ما كان يجلس على ما يشبه الأريكة ويطلب تقديم اثنتين أو ثلاثاً من الأضحيات البشرية فى وقت واحد، ولم يكن ثمة مفر من إحضارهم فى كل مرة.

(١) الغصن الذهبى ج ١ ص ٣٤٣.

ذلك الإله الذى يبعث فى نفوس الناس أقصى درجات الرعب، ولذا كان على كل سكان الجزيرة أن يتقربوا ويتزلفوا إليه، ويأتوا من كل حدب وصوب لتقديم الهدايا والقرايين^(١).

(١) المصدر السابق ص ٣٤٣ - ٣٤٤.

الفصل الثانى

القرايين البشرية عند السومريين والبابليين

استدل العلماء من خلال الكشوفات العلمية الحديثة على قدم الضحايا البشرية فى العادات التى سبقت عهد الساميين بوادى النهرين وبقاع الهلال الخصيب وأنها بقيت إلى ما بعد وفود الشعوب السامية إلى تلك البقاع^(١).

وتدل الأحافير بمدينة (أور) على قدم تلك العادة فى عبادة الملوك خاصة، إذ كان الملوك يدفنون معهم حاشيتهم ووزراؤهم ولا يبدو من هيئة جثمانهم أنهم ماتوا على الرغم منهم، فليس منهم من وجدت جثته وفيها أثر الذبح أو الخنق أو القتل بالضرب العنيف، ولهذا يعتقد (وولى) فى كتابه "أور الكلدانيين" أنهم كانوا يتجرعون باختيارهم عقارًا سامًا يخدرهم ويميتهم، لإيمانهم بالانتقال مع الملوك الأرباب إلى حالة فى السماء كحالتهم فى الحياة الأرضية^(٢).

ووجدت على بعض أختام الطين صور آدميين يلبسون قناعًا يشبه رأس الحيوان، والمظنون - كما يقول هوك - أن هذا الزى كان مقدمة للذبح الرمزي وإجراء الشعائر مجرى التمثيل المقدس^(٣) فى الاحتفالات العامة ولا سيما بعيد رأس السنة^(١).

(١) وفد السومريون على وادى النهرين وبعدهم الأكديون وهم ليسوا من الساميين، أما الشعوب السامية التى عاشت فى العراق القديم فهم البابليون والأشوريون والكلدانيون، ولمعرفة هؤلاء الشعوب (ساميين وغير ساميين) راجع الفصل الخاص بالديانات الوثنية القديمة فى رسالتى الدكتوراه (تأثر اليهودية بالأديان القديمة) كلية أصول الدين بطنطا ١٩٨٧م.

(٢) عباس العقاد: إبراهيم أبو الأنبياء ص ١٧١ - ١٧٢ منشورات المكتبة العصرية - بيروت ١٩٨١م.

(٣) ويذكر العقاد أنه وجد فى حفائر (أور) تمثال جدى مربوط مقيد فى شجرة لعله رمز لاستبدال =

وقد كان العثور على المقابر الملكية بمدينة أور من أهم الكشوفات التي قام بها المنقبون في أطلالها وظهر جلياً أن السومريين في ذلك الوقت (حوالي ٣٠٠٠ ق.م) كانوا يدفنون مع ملوكهم عدداً كبيراً من حاشيتهم يقتلون في نفس اليوم وتوضع جثثهم في المقبرة للقيام على خدمة كاهلهم.

ومن أهم هذه المقابر مقبرتان في حالة حفظ جيدة الأولى للملك والثانية لزوجته، وقد امتلأت كل مقبرة بأفخر الحلى وأدق الأدوات المصنوعة من الذهب الخالص، وتكدست في كل من المقبرتين جثث أفراد الحاشية الذين لا بد أنهم قتلوا عمداً لينالوا فخر الانضمام إلى عاهلهم وزوجته في الدنيا الثانية.

ومن الغريب أنه قد اتبع نظام دقيق في ترتيب وضع كل جثة بحيث يقرب صاحبها أو يبعد عن جثة الملك طبقاً للوظيفة التي كان يشغلها في الدنيا، ونجد أنواعاً شتى من أصحاب الوظائف المختلفة فمن حرس ملكي تزين كل منهم بخوذته النحاس، وتسليح بحرته الطويلة، إلى سيدات البلاط وقد اصطحبت كل منهم حليها الفخمة، ومغنيات احتفظت كل منهن بآلاتها الموسيقية بجانبها

= الضحية الحيوانية بالضحية البشرية، وتاريخه في تقدير (وولي) سابق لعصر الخليل بألف وخمسمائة سنة (إبراهيم أبو الأنبياء ص ١٧٢) فهناك نوع غريب من التضحية يسمى بالتضحية الصورية أو التمثيلية: كالتضحية بالتمائيل والصور الإنسانية (وقد انتشرت هذه العبادات عند كثير من الأمم القديمة والحديثة)، وكاهراق الدم من عضو من أعضاء الضحية دون القضاء على حياتهم (وقد اتبع هذا النظام في كثير من معابد الإغريق) وبخاصة (الإله أرتميس) وكالاكتفاء بأعمال تمثيلية تشير إلى ما كان يعمل قديماً (فعند قبائل الهنود الحمر مثلاً كان يكتفى في التضحية عقب وفاة الزوج بأن يؤتى بكومة حطب وتشعل النار فيها، ويؤتى بزوجة المتوفى وتمد على هذه الكومة وتظل كذلك حتى يقرب اللهب منها، ومن أنواع التضحية التمثيلية التضحية بخيال الإنسان، فبعض شعوب البلغار عندما يشرع الواحد في بناء جديد يتربح أول مار بجوار البناء فيقيس ظله بخطط ويضع هذا الخط تحت أول حجر يوضع في العمارة ويعتبر هذا تضحية، ويزيد لديه هذا الاعتبار قوة أنه يعتقد أن صاحب هذا الظل لا بد أن يموت عما قليل وهذا هو أغرب أنواع التضحية. (د/ على عبد الواحد وافي غرائب النظم والعبادات ص ٧٧ - ٧٨).

(١) أصول الشعائر السامية الأولى نقلاً عن عباس محمود العقاد: إبراهيم أبو الأنبياء ص ١٧١ - ١٧٢.

إلى عدة من سائقي العربات استلقوا بجانب عرباتهم التي تجرها الثيران والحمير^(١).

ومن الصعب - فيما يقول د/ إيفارليسner - أن يتصور المرء شعور من يكتشف مثل هذه المقابر التي لم تمتد إليها يد البشر حيث يرقد الموتى في أمان وما انفك خدمهم داخل القبر والجنود يحرسون المدخل، بينما يمسك السياس بألجمة حيواناتهم والموسيقيون يحتضنون آلاتهم الموسيقية والوصيفات يتجمعن في خشوع بالقرب من الغرفة الملكية، أى أن هذه كانت عملية دفن جماعية لحاشية ملكية تذهب في ولائها لسيدها إلى حد الموت^(٢).

وقد وصف لنا الدكتور إيفارليسner ما شاهده علماء الآثار فذكر أن الملكة قد وجدت طريحة على ظهرها، وأن الجثة لم تتعرض لأكثر من مدها ببساطة فوق ركيزة من الخشب وعند رأسها جثة خادم بينما وجدت رفات خادم أخرى عند قدميها، لقد ماتت هاتان الخادمتان موتاً قرباناً حيث تم إغلاق غرفة الدفن ووضع الخاتم عليها في احتفال رسمي.

ففى السرداب المفضى إلى الغرفة كان يسير موكب يضم أفراد الحاشية والجنود وغيرهم من النابغين ذكوراً وإناثاً، وكانت الإناث ترتدين ملابس مزركشة وتزين أنفسهن بزينات الشعر والأقراط الذهبية والأكاليل المرصعة بالأحجار الزرقاء النفيسة وورق الأشجار الذهبى ودبابيس الشعر الفضية، والأمشاط الجميلة والعقود ومشابك كبيرة للملابس، واتخذ الجميع أماكنهم حول حفرة القبر تتبعهم عربات تجرها الثيران والحمير، وكان كل رجل وامرأة يمسك بين يديه وعاء صغيراً من الحجر أو الخزف أو المعدن بينما يتوسط القبر إناء كبير من النحاس.

(١) راجع د/ عبد المنعم أبو بكر - العراق القديم تاريخه وحضارته ضمن كتاب حضارة مصر والشرق القديم، ص ٢٨٠ - نشر مكتبة مصر القاهرة بدون تاريخ.

(٢) د/ إيفارليسner الماضى الحى ص ٣٠ ترجمة شاكرا إبراهيم سعيد نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨١م.

ويبدو أن الأقداح قد ملئت سماً وشرب كل شخص منه، فقد عثر على جثث للضححايا في صفوف منتظمة يبدو عليها الهدوء التام ولم تتبين أية بادرة تدل على العنف أياً كان حتى إن تصنيفات شعور النساء لم تتعرض لأى تشعث، ولعل الجميع لقوا حتفهم وهم في وضع مائل أو وهم جالسون كما لو كانوا قد قرروا فجأة ودونما صخب الانسحاب من الحياة، بل إن "وولى" قد استنتج أن الموسيقيين ظلوا دون شك يعزفون حتى النهاية^(١).

ويذكر ول ديورانت أنه قد عثر في الخرائب السومرية على لوحة نقشت عليها بعض الصلوات وجاءت فيها هذه العبارة "إن الضأن فداء للحم الآدميين، به افقدى الإنسان حياته".

ويستنتج من ذلك أن السومريين كانوا يقدمون لألهتهم في بادئ الأمر القرابين البشرية ثم استعاضوا عنها بلحوم الحيوان^(٢).

وقد بقيت القرابين البشرية قائمة بعد السومريين:

ففى العهد البابلي الحديث^(٣) كما يقول وينهايم عثر على وثائق إدارية تثبت أن أبوين ضحيا بأطفالهم وذلك بتقديم قرابين إلى المعبد في سبيل انقاذ حياتهم أثناء فترات المجاعة، وهناك إشارات تؤكد على حدوث ذلك في عهود قديمة^(٤).

وتذكر كاثرين هنرى أن البابليين كانوا يعبدون آلهة كثيرة وأن أور كانت مركز عبادة القمر وقد جرت عادة القوم أن يقدموا لهذا المعبود "القمر" ضحايا بشرية^(٥).

(١) المصدر السابق ص ٢٨ - ٢٩.

(٢) الشرق الأدنى ص ٢٩ الجزء الثانى من المجلد الأول من قصة الحضارة.

(٣) حدد المؤرخون هذا العصر من سنة (٦٢٦ - ٥٣٩ ق. م).

راجع الحديث عن البابليين وديانتهم فى رسالتى للدكتوراه تأثير اليهودية بالأديان القديمة - كلية أصول الدين بطنطا ١٩٨٧ م.

(٤) بلاد بين النهرين ص ١٣٢ ترجمة سعدى فيضى عبد الرازق - بغداد ١٩٨٦ م.

(٥) التاريخ فى الكتاب ص ٧ وهو خلاصة كتابين باللغة الإنجليزية تلخيص حبيب سعيد - دار التأليف والترجمة والنشر للكنيسة الأسقفية بمصر.

ويرى حبيب سعيد أن البابليين وغيرهم من الساميين الذين استوطنوا بلاد ما بين النهرين أخذوا عادة تقديم الذبائح البشرية عن الأكاديين الذين كانوا يقطنون هذه البقعة قبل دخول الساميين إليها^(١).

وتذكر أبقار السقاف أن عادة التضحية بالقرايين البشرية وإحراقها كان ولا جدال في ذلك طقساً دينياً منذ القدم وخاصة في بلاد النهرين حيث كان الأرباب القساة عند البابليين يغالون في مطالبهم فيطلبون أحياناً تقديم الضحايا البشرية من القرايين.. ولقد بز الرب "أداد" الأرباب طرا في قسوته إذ كان التماس رضائه يستلزم التضحية بالابن البكر وحرق جثمانه^(٢).

هذا وقد بقي تقديم القرايين البشرية إلى آلهة بابل قائماً حتى السبي الأشوري للإسرائيليين^(٣).

جاء في سفر الملوك الثاني أن السفروايمييين كانوا يحرقون بنيهم بالنار لأدرملك وعنملك إلهي سفروايم^(٤).

والسفر وايمييون هم أهل سفروايم وهي كلمة عبرانية في صورة المثنى فهي اسم لبلدتي سفارة اللتين تقعان على ضفتي نهر الفرات جنوب غرب بغداد، وكان أهلها يحرقون أولادهم للآلهة الوثنية ومنها أدرملك وعنملك^(٥).

(١) خليل الله في اليهودية والمسيحية والإسلام ص ١٠ دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية ١٩٥٩ م.

(٢) إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة ص ١٢٢ نشر عالم الكتب الطبعة الأولى ١٩٦٧ م.

(٣) وقع السبي الأشوري لإسرائيل عام ٧٢٢ ق. م، وقد طرد الآشوريون سكان السامرة عاصمة مملكة إسرائيل وأحلوا محلهم أقواماً آخرين منهم السفروايمييون (ملوك ثان ١٧ : ٢٤) راجع الفصل الخاص بفترات السبي والاضطهاد التي تعرض لها اليهود في تاريخهم القديم في رسالتي للدكتوراه "تأثر اليهودية بالأديان القديمة".

(٤) ملوك ثان ١٧ : ٣١.

(٥) راجع قاموس الكتاب المقدس ص ٤٦٩ وحبيب سعيد: خليل الله ص ١٠.

الفصل الثالث

القرايين البشرية عند المصريين القدماء

يعتبر المصريون القدماء من الأمم الوثنية التى ظهر فيها تقديم القرايين البشرية إلى معبوداتهم المختلفة وآلهتهم الكثيرة المتنوعة.

يقول ول ديورانت إننا لا نجد فى بلد من البلاد - إذا استثنينا بلاد الرومان والهند - ما نجده من الآلهة الكثيرة فى مصر^(١).

فقد أخذت الديانة المصرية القديمة حين نشأتها وفى مراحل طويلة من تاريخها بتعدد المعبودات شأنها فى ذلك شأن مثيلاتها من الديانات الوضعية القديمة، ولكنها ظلت أغنى من غيرها فى وفرة نصوصها، ووضوح قضاياها، ورد المصريون الأوائل كل ظاهرة حسية تأثرت دنياهم بها إلى قدرة علوية أو علة خفية تحركها وتتحكم فيها، وتستحق التقديس من أجلها، الأمر الذى أفضى إلى تعدد ما قدسوه من العلل والقوى الربانية المتكلفة بالرياح والأمطار، وبجريان النيل وتعاقب الفيضانات وتجدد خصوبة الأرض ونمو النبات^(٢).

من أجل هذا كان المصريون يقدمون ضحاياهم وقرايينهم البشرية إلى آلهة النبات ليجود محصول الأرض، وجرت العادة أن تحرق هذه الضحايا وتشر رفاتها فى

(١) راجع قصة الحضارة ج ٢ ص ١٥٥ - ١٥٦.

(٢) د/ عبد العزيز صالح: الشرق الأدنى القديم مصر والعراق ص ٣٢٩ - نشر مكتبة الأنجلو المصرية - الطبعة الثالثة.

الحقول، وأن تختار من بين الرجال الصفر الشعور تفاؤلاً بهذا اللون الذى يحاكي لون النبات فى مراحل نضجه وقرب حصاده^(١).

وحينما كان المصريون يعبدون الإله "رع" أخذوا يتوسلون إليه بأن يقدموا له قرابين بشرية ليزول غضبه المزعوم^(٢).

وكذلك كانوا يقدمون القرابين البشرية إلى الإله "أوزوريس" فى معابده التى كانت منتشرة فى كثير من بلاد مصر القديمة، ويقدمونها كذلك لأرواح الموتى ولخدمتهم فى قبورهم، وكانت هذه الضحايا الأخيرة تختار عادة من بين رقيق الميت وحشمه^(٣).

ويذكر الدكتور أحمد فخرى أن عادة دفن الأتباع مع أسيادهم وملوكهم بجانب وجودها فى سومر^(٤) - كانت متبعة أيضاً فى مصر حيث عثر على جثث كثير من أتباع إحدى الأميرات فى مقبرتها فى سقارة، وحينما مات الحاكم المصرى "زفاحعبى"^(٥) بالسودان ضحى معه بأكثر من مائتى شخص (وربما كانوا نحو ٢٧٠) من خدمه وأتباعه ودفنوه فى الممر المؤدى إلى قبره.

ولكنه يعود فيذكر أن هذه العادة كانت متبعة فى مصر فى عهد ما قبل الأسرات، وأنها بقيت معروفة أيضاً فى الأسرة الأولى لكنها اختفت فيما بعد وإن ظلت متبعة فى السودان خلال العصور الفرعونية، وظلت فى النوبة حتى ظهور المسيحية بعدة قرون^(٦).

(١) د/ على عبد الواحد وافي. غرائب النظم والتقاليد والعادات ص ٨٢.

(٢) سليمان مظهر: قصة الديانات ص ٧ - نشر دار الوطن العربى - بيروت.

(٣) غرائب النظم والتقاليد ص ٨٢.

(٤) وقد أشرنا إلى ذلك فى حديثنا عن القرابين البشرية عند السومريين.

(٥) زفاحعبى هو صاحب هذه المقبرة الشهيرة فى أسيوط راجع د/ أحمد فخرى: مصر الفرعونية هامش ص ٢٣٠.

(٦) راجع: مصر الفرعونية ص ٢٢٩ - ٢٣٠ نشر مكتبة الأنجلو ١٩٨٣ دراسات فى تاريخ الشرق القديم ص ٣٣ - ٣٤ - نشر مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٤ م.

ومن بين الآلهة التى عبدها المصريون وقدسوها أيضًا إله النيل بل إن النيل والسماء - فيما يقول ول ديورانت - ظلا أكبر أرباب المصرى القديم إلى آخر أيامه^(١). حيث تصور معبوداته من خلال طبيعة أرضه وسمائه، وحينما تأمل الخصب الدائم الممنوح لأرضه اعتبر أن صانع كل ذلك - جهلاً ووثنية - هو النيل والشمس^(٢).

يذكر أدولف أرمان أن المصرى قد أفسح لخياله المجال نحو تقديس النيل ورأى فيه القوة التى تأتية بالأعجوبة السنوية والتى تهيمن على حياته فقام بتأليهه، بل جعله واحداً من بين آلهته العظمى ولقبه المصريون بأبى الآلهة وقدموا له القرابين واعتبروه رب الماء الذى يجلب الخضرة^(٣).

وكانوا يحتفلون بموت وبعث أوزير (إله النيل المبارك) فى كل عام وكانوا يرمزون بموته وبعثه لانخفاض النيل وارتفاعه ولعلهما كانا يرمزان أيضًا لموات الأرض وحياتها^(٤).

وجاء فى قاموس الكتاب المقدس أن المصريين القدماء كرموا النيل اعترافاً بقيمته حيث اعتقدوا أنه أنقذ بلادهم من أن تكون تنمة للصحراء الكبرى، وجعلوه إلهًا، وكانوا يقدمون له الذبائح فى المناسبات والأعياد الخاصة به وكانوا يقدمونها فى يوم وفائه (أى فى الاحتفال بفيضانه) لعله يرضى فلا يؤذيهم^(٥).

ومن بين هذه الذبائح والقرابين كان المصريين يقدمون له - باعتباره من أكبر آلهتهم - بتتا عذراء، يقذف بها فيه لترضى بها نفسه فيغمر البلاد بخيره وفيضانه، وكانت الضحية تختار عادة من بين أسرات الأشراف حتى يتناسب مقامها مع مقام الإله المقدم له^(٦).

(١) الشرق الأدنى ص ١٥٦.

(٢) سليمان مظهر: قصة الديانات ص ١٣.

(٣) ديانة مصر القديمة ص ١٧ - ١٨ نشر عيسى الحلبى - القاهرة.

(٤) ول ديورانت: قصة الحضارة ج ٢ ص ١٥٩.

(٥) قاموس ص ٩٩.

(٦) د/ على عبد الواحد وافي: غرائب النظم ص ٨٢ بحوث فى الإسلام والاجتماع ص ١١٧.

وقد ورد في كتب التاريخ الإسلامي أن هذه العادة ظلت قائمة في مصر حتى تم فتحها على يد عمرو بن العاص ففضى عليها الإسلام وأبطلها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

يذكر ابن كثير أنه لما افتتحت مصر أتى أهلها عمرًا بن العاص حين دخل بؤونة من أشهر العجم - فقالوا: أيها الأمير، لنيلنا هذا سنة لا يجرى إلا بها. قال، وما ذاك؟ قالوا إذا كانت اثنتا عشرة ليلة خلت من هذا الشهر عمدنا إلى جارية، بكر من أبويها فأرضيناها وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها في هذا النيل، فقال لهم عمرو: إن هذا مما لا يكون في الإسلام، إن الإسلام يهدم ما قبله، قال: فأقاموا بؤونة وأيبب ومسرى والنيل لا يجرى قليلاً ولا كثيراً، حتى هموا بالجللاء. فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب بذلك فكتب إليه: إنك قد أصبت بالذى فعلت، وإنى قد بعثت إليك بطاقة داخل كتابى، فألقها في النيل، فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة فإذا فيها "من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر، أما بعد فإن كنت إنما تجرى من قبلك ومن أمرك فلا تجر فلا حاجة لنا فيك وإن كنت إنما تجرى بأمر الله الواحد القهار وهو الذى يجريك فنسأل الله تعالى أن يجريك".

قال ابن كثير "فألقي البطاقة في النيل فأصبحوا يوم السبت وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة وقطع الله السنة عن أهل مصر إلى اليوم"^(١).

وإذا كان ابن كثير يذكر أن هذه السنة وتلك العادة قد انقطعت إلى عهده فإنها قد تركت في مصر رواسب كثيرة تتمثل فيما كانوا يسمونه عروس النيل وهى - كما يقول الدكتور وافي - تمثال بنت يقذف به في النيل في إبان فيضانه رمزاً للأضحية الأولى التى كانت تقدم إليه من العذارى، وظل هذا التقليد معمولاً به إلى عهد قريب^(٢).

(١) راجع البداية والنهاية الجزء السابع ص ١٠٢ - ١٠٣. نشر دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الرابعة ١٩٨٨ م.

(٢) غرائب النظم ص ٨٢ - ٨٣ بحوث في الإسلام والاجتماع ص ١١٧ - ١١٨.

وقد نشرت جريدة الأهرام بتاريخ ٦/٨/١٩٨١م في باب المرأة تحت عنوان:
لأول مرة منذ آلاف السنين (مسابقة لاختيار ملكة جمال النيل، وعودة الاحتفالات
بوفاء النيل بعد توقفها ١٢ عامًا ما خلاصته):

أن قدماء المصريين كانوا يقومون باختيار أجمل فتاة عذراء في مصر ويلبسونها
أفخر الثياب ويزينوها بأعلى الحلى، ثم يسرون بها في موكب بحرى كبير في النيل،
ويلقونها في الماء ليتزوجها النهر الخالد إرضاء له وشكرًا على فيضانه، وعندما جاء
العرب استبدلوا العروسة البشرية بتمثال لعروس النيل، وفي هذا العام يتخذ
الاحتفال مظهرًا أكثر حيوية، ويفتح المجال أمام الفتيات من سن ١٥ إلى ٢٥ سنة
للاشتراك في مسابقة ملكة جمال النيل التحكيم التي ستعقد لاختيارها، وأن
العروس الفائزة بلقب ملكة جمال النيل ستنتقل يوم ٢٤ أغسطس الجارى من أمام
الميرديان في موكب داخل مركب فرعونى، ثم مركب بها ٤٠٠ أربعمئة مدعو من
مختلف الهيئات الدبلوماسية ومن ورائهم ٥٠ خمسون مركبًا شراعيًا، حيث يسير هذا
الموكب من فندق الميرديان إلى كوبرى قصر النيل، حيث يتوقف الموكب وتبدأ
المراسم المتبعة في ذلك، ويلقى محافظ القاهرة الوثيقة، وتطلق الصواريخ وتقفز
العروس في النيل.

وجاء في الفتاوى الإسلامية أن صاحب الفضيلة الشيخ جاد الحق على جاد الحق
مفتى جمهورية مصر العربية^(١) قد أصدر بيانًا في مقال نشرته جريدة الأهرام^(٢)
نقدًا لهذا الاتجاه تحت عنوان (أوقفوا اليوم فورًا هذا العبث باسم وفاء النيل) قال
فيه:

"كان للأمم الغابرة عادات يرونها حسب معتقداتهم من لوازمهم، ولقد جرت

(١) تولى فضيلة الشيخ جاد الحق على جاد الحق مشيخة الأزهر الشريف في ٢٢ جمادى الأولى ١٤٠٢هـ
الموافق ١٧/٣/١٩٨٢م، محمد كمال السيد: الأزهر جامعًا وجامعة ص ٣٤٤ - نشر مجمع البحوث
الإسلامية ١٩٨٦م.

(٢) بتاريخ ٩ شوال ١٤٠١هـ الموافق ٩/٨/١٩٨١م.
- ٧٨ -

بعض قبائل العرب في الجاهلية على وأد البنات، إما للفقر أو خشية عارهن إذا انحرفت بهن الحياة أو انحرفن بها، وجاء الإسلام وقال لهم القرآن (وإذا الموءودة سئلت، بأي ذنب قتلت) فخشعت قلوبهم لما نزل من الحق، وارتفع القرآن بحواء وأبان مكانتها، أما وزوجا وبتنا وأختا، وكشف عن واقعها في الحياة، فلها ذمتها ولها حركة حياتها في نطاق النظام العام الإسلامي.

ولم يكن العرب وحدهم هم وأدة البنات، بل شاركهم في ذلك المصريون القدماء، فقد روى التاريخ أن المصريين كانوا يحتفلون بيوم وفاء النيل في شهر توت أو مسرى من كل عام، وقد كان هذا الحفل ينتهي بإلقاء عروس في النيل - أى والله عروس فتاة من بنى الإنسان يلقون بها في النهر وقت فيضانه، وفي أمواجه الهادرة في غرينه وطميه، عقيدة منهم أن النهر يرضى عنهم إذا زوجه تلك العروس، فيفيض دائمًا ولا يغضب!!

ولما دخلت مصر في الإسلام، وارتفع في سمائها نداؤه ودعاؤه، وعلمت أن الله وحده هو واهب النيل إلى مصر، وهو سبحانه الذى فجر هذا النهر حتى فاضت جنباته عيونًا من الأرض وأنهارًا من السماء أوقف حاكم مصر المسلم وأد البنات فيها، وأجرى فيها حكم الله، وتلا عليهم قوله: (وإذا الموءودة سئلت، بأي ذنب قتلت) وأعلمهم بأن الله سبحانه هو صاحب هذه النعمة، نعمة هذا النهر الجارى بإذنه وأمره حتى شق الفيافي والقفار، واجتاز بلادًا وحدودًا ليروى كنانة الله فى أرضه، مصر، ويهبها الحياة، واستبدل عروسهم التى يئدونها فى النيل، بكلمة الله ألقاها فى مياهه التى فاضت وقال: أيها النيل إن كنت تجرى باسم الله ومن الله، فإن الله مجريك، وإن كنت لا تجرى إلا بهذه العروس فلا تجر، لأن الله مرسل الرياح ومجرى السحاب قال جل شأنه (وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارًا) وقال أيضًا (والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابًا فسقناه إلى بلد ميت).

ثم يقول صاحب الفضيلة:

فهل يجوز بعد أن مضى على وأد هذه العادة المصرية الجاهلية قرابة أربعة عشر قرناً من الزمان أن نعود إليها ونخالف حكم الله؟؟

فقد طالعت قبل أيام خبراً يتحدث عن النية إلى إقامة مسابقة لاختيار ملكة جمال النيل، وعودة الاحتفالات بوفاء النيل بعد توقفها ١٢ عاماً، يا هول هذا الخبر وما حواه من استعراض لأجساد فتياتنا من سن ١٥ إلى سن ٢٥.

أعوذُ إلى سوق النخاسة والرقيق الأبيض؟

وهذا المهرجان يدعو إلى حفل زفاف عروس النيل الذى تشهده الدولة رسمياً وتنظمه، بل وتدعو إليه الهيئات الدبلوماسية في مصر، مصر الأزهر، مصر التى وضعها العالم رائدة وقائدة للعرب والمسلمين، تترد إلى جاهلية عمياء، لا تفرق فيها بين الحلال والحرام.

أى وثيقة هذه التى يلقيها المسئول الكبير فى النيل مع العروس التى اشترط أن تحيد السباحة وأن تلتقطها فرق الإنقاذ، أى خدش، وأى إهانة للأئمة التى كرمها الله وحرّم وأدها، بل وحرّم لمسها لغير محارمها أو زوجها.

أى وثيقة تلك وماذا تحوى؟ هل تحوى جريان النيل باسم الله وبلوغ مياه الفيضان القدر المقرر لتحصيل الضرائب إظهاراً للعدل فى الرعية وشكراً لنعماء الله؟.

أو تحوى تزويج هذه العروس للنيل والعودة إلى وثيقة محاها الإسلام؟ (ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب).

ثم توجه صاحب الفضيلة إلى المسئولين قائلاً: إلى المسئولين عن تنظيم هذا المهرجان أسوق الحديث. إن مصر لا تروج فيها هذه المهرجانات، ولا ينبغى أن تقام فيها.

أيها المسئولون جميعاً: إليكم أوجه الرجاء والنداء: أوقفوا هذه المهازل إنا ندعو المسئولين جميعاً بالتدخل لوقف هذه المهرجانات الفاسدة، والله يهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم^(١).

هذا ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن ظاهرة قيام المصريين القدماء بزفاف إحدى الفتيات كعروس للنيل كانت شائعة بين عدد من الشعوب الوثنية القديمة كنوع من التزيوج للآلهة في تصورهم.

يذكر جيمس فريزر أن عادة تزيوج الآلهة من التماثيل أو البشر الأحياء كانت شائعة بين الشعوب القديمة، ولقد بلغت الأفكار التي تقوم عليها هذه التقاليد القديمة من البساطة درجة لا تجعلنا نتردد - فيما يقول فريزر - في القول بأن الشعوب المتحضرة القديمة كالبابليين والمصريين القدماء والإغريق ورثوها عن أسلافهم المتبربرين أو الهمج، ويقوى من هذا الافتراض وجود شعائر مماثلة عند كثير من الشعوب الدنيا^(٢).

وفي كثير جداً من الأحيان لم تكن "زوجة الإله" مجرد لوح من خشب ولم تكن تمثالاً من الطين بل كانت امرأة حية بالفعل.

فالمعروف مثلاً عن سكان إحدى قرى بيرو من الهنود الحمر أنهم كانوا يزوجون فتاة جميلة في الرابعة عشر من عمرها لتمثال منحوت من الحجر على شكل إنسان ويعتبرونه أحد آلهتهم وكان جميع سكان القرية يشتركون في حفل الزواج الذي كان يستمر ثلاثة أيام مليئة بالضجة والعريضة.

(١) راجع المجلد العاشر من الفتاوى الإسلامية رقم ٣٠ من ص ٣٥٨٣ - ٣٥٨٦ الصادرة من دار الافتاء المصرية بالتعاون مع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

هذا وقد نشرت جريدة الأهرام بعدها الصادر بتاريخ ١٠ / ٨ / ١٩٨١م في باب أخبار الصباح ما يلي: عزيز قاسم مدير عام الميرديان بالقاهرة ألغى مسابقة وفاء النيل، كما نشرت جريدة الجمهورية بعدها الصادر بتاريخ ١٠ / ٨ / ١٩٨١م ما يلي: الميرديان يلغى المسابقة ويعتذر لـ ٧٠ فتاة.

(٢) الغصن الذهبي جـ ١ ص ٤٨٤.

وكان يقضى على الفتاة أن تظل عذراء بقية حياتها وأن تهب نفسها لهذا الصنم من أجل سعادة الناس الذين كانوا يعاملونها بأبلغ آيات الإجلال وينظرون إليها على أنها كائن مقدس^(١).

ومما يستحق الذكر هنا أيضًا أن الكائن الخارق للطبيعة الذى كانت تزف إليه النساء هو فى الأغلب أحد آلهة (أو إحدى أرواح) الماء على غرار ما كان يفعل المصريون لإله النيل).

فقبائل الباجندا مثلاً يقدمون بعض الفتيات العذارى إلى موكاسا إله بحيرة فيكتوريا - على أنهن زوجات له بقصد استرضائه حين يزمعون القيام برحلة طويلة. وتبعد قبيلة أكيكويو فى شرق أفريقيا البريطانية الثعبان الذى يعيش فى نهر معين هناك، ولذا فإنهم يزوجون ذلك الإله الثعبان مرة كل بضع سنين من عدد من النساء وبخاصة من الفتيات الصغيرات^(٢).

ومما يحكى أن سكان كايبلى فى بورو - وهى إحدى جزر الهند الشرقية - تعرضوا ذات مرة للخطر والدمار نتيجة لهجوم جحافل كبيرة من التماسيح وردوا تلك الكارثة إلى الشوق الشديد الذى يقاسى منه أمير التماسيح نحو إحدى فتياتهم، فأجبروا أباهما على أن يهيئها فى ملابس الزفاف ويقدمها طائعا إلى مخالب التمساح العاشق^(٣).

ومن مفاخر الإسلام أنه قضى على عادة من هذا النوع نفسه كانت منتشرة فى جزر المالديف قبل أن يعتنق السكان هناك الإسلام.

وقد وصف الرحالة العربى الشهير ابن بطوطة هذه العادة وطريقة القضاء عليها، فلقد ذكر له الكثيرون من الثقات من أهل الجزيرة - ذكر الكاتب أسماءهم -

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٤٨٦.

(٢) جيمس فريزر: الغصن الذهبى: دراسة فى السحر والدين ج ١ ص ٤٨٨ - ٤٨٩.

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ٤٨٩.

أنه في الوقت الذي كان الناس هناك يعبدون الأوثان كانت تظهر لهم في كل شهر روح شريرة من الجن تأتي عبر البحار على شكل سفينة مليئة بالمشاعل الملتهبة وكان الشغل الشاغل للناس حين يرونها هو البحث عن فتاة عذراء صغيرة يزينونها ثم يسوقونها إلى معبد وثنى على الساحل وله نافذة تطل على البحر فيتركون الفتاة هناك طول الليل، وعندما يعودون إليها في الصباح كانوا يجدون أنها فقدت بكارتها وفارقت الحياة.

وكان الناس يجرون (القرعة) في كل شهر، فمن وقعت عليه (القرعة) وجب عليه أن يتنازل عن ابنته لجن البحر، وظل الحال كذلك حتى جاء رجل صالح من البربر وأمكنه أن يخلص آخر فتاة قدمت بهذه الطريقة إلى ذلك العفريت وأن يطرد العفريت ذاته إلى البحر بتلاوة القرآن الكريم عليه^(١).

وهذه القصة التي يحكيها ابن بطوطة عن الجنى العاشق وعرائسه الأدميات تشبه شبيهاً قوياً نوعاً معيناً من القصص الشعبي الشائع والذي يتخذ صوراً وأشكالاً مختلفة من اليابان وأنام في الشرق إلى سينجامبيا واسكنديناوة واسكتلاندة في الغرب.

وتختلف القصة في التفاصيل من شعب لآخر ولكنها في عمومها - كما عرضها جيمس فريزر - تتخذ الشكل التالي.

"كانت هناك بلد يهددها ثعبان (أو تنين أو أى وحش آخر) له عدة رؤوس وينذر أهلها بالدمار إن لم يقدموا له على فترات معينة ضحية من البشر تكون في العادة فتاة عذراء".

وفي لقي عدد كبير من الفتيات الضحايا حتفهن نتيجة لذلك إلى أن جاء الدور على ابنة الملك لتكون هي الضحية، وألقى بالفتاة إلى الوحش، وهنا يظهر بطل

(١) راجع الغصن الذهبي ج ١ ص ٤٨٩ - ٤٩٠.

القصة - وهو في العادة شاب صغير من أصل متواضع - فيتدخل لإنقاذها ويقتل الوحش وينال يد الأميرة جزاء له على عمله.

وفي كثير من القصص يسكن الوحش (الذي يوصف أحياناً بأنه ثعبان) في ماء البحر أو البحيرة أو أحد الينابيع، أو قد يظهر في بعض القصص الأخرى على أنه يسيطر على ينابيع الماء فلا يسمح للماء بالانسياب كما لا يسمح للناس باستعماله إلا بعد أن يقدموا له ضحية آدمية^(١).

وقد يكون من الخطأ أن نرفض هذه القصص على مجرد أنها أوهام اخترعها الرواة، والأحرى بنا أن نفترض أنها تعكس بعض العادات الحقيقية التي كانت تقوم على تضحية الفتيات أو النساء بتزويجهن لروح الماء التي كان الناس يتصورونها في الأغلب على شكل ثعبان أو تنين كبير^(٢).

(١) المصدر السابق ص ٤٩٠ - ٤٩١.

(٢) المصدر السابق ص ٤٩١.

الفصل الرابع

القرايين البشرية عند الهنود القدماء

يذكر ول ديورانت أن أعظم الطقوس الجماعية في الديانة الهندية القديمة هي تقديم القرايين، فالقربان عند الهندي ليس مجرد صورة خاوية، لأنه يعتقد أنه إذا لم يقدمه للآلهة طعمًا تموت جوعاً.

وكان من أنواع القرايين في الهند كما في غيرها من بلاد العالم القديم القرايين والضحايا البشرية، وكانت "كالي" تحب أن يكون قربانها رجالاً، ثم فسر البراهمة هذا بأنها إنما تحب أن تأكل رجالاً من أهل الطبقات الدنيا وحدها^(١).

والإلهة "كالي" تعد زوجة الإله "شيفا" الذي كانت عبادته من أقدم وأعمق وأبشع العناصر التي تتألف منها الديانة الهندية، وكلمة "شيفا" لفظة أريد بها التخفيف من بشاعة الإله، فمعناها الحرفي "العطوف" مع أن شيفا في حقيقة الأمر - عند الهنود - إله القسوة والتدمير قبل كل شيء آخر، هو تجسيد لتلك القوة الكونية التي تعمل واحدة بعد الأخرى، على تخريب جميع الصور التي تبدى فيها حقيقة الكون^(٢).

وهذا الإله الذي يرمز للتدمير، يمثل كذلك للعقل الهندي تلك الدفعة الجارفة نحو التناسل الذي يتغلب على موت الفرد باستمرار الجنس.

(١) الهند وجيرانها ص ٢٢٥ الجزء الثالث من المجلد الأول من قصة الحضارة ترجمة د/ زكي نجيب محمود لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٨ م.

(٢) المصدر السابق ص ٢٥٠.

وهذه الحيوية الخلاقة الناسلة (شاكتى) التى يديها شيفا تتمثل فى بعض جهات الهند، وخصوصاً فى البنغال، فى صورة زوجة شيفا، واسمها "كالى" وهى موضع عبادة فى عقيدة من العقائد الكثيرة التى تأخذ بمذهب "الشاكتى" هذا^(١).

ولقد كانت هذه العبادة حتى القرن الماضى - كما يقول ول ديورانت - وحشية الطقوس حيث كانت تتضمن فى شعائرها تضحية بشرية.

وقد ارتكبت جمعية "الغادرين" (وهى جمعية سرية عجيبة تكاد تكون طبقة اجتماعية) فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر آلاف الجرائم الشنيعة، وذلك - كما قالوا - بغية تقديم هؤلاء الضحايا قرايين للإله "كالى"^(٢).

وصورة هذه الإلهة عند عامة الناس شبح أسود بضم مفغور ولسان متدل، تزدان بالأفاعى وترقص على جثة ميتة، وأقراطها رجال موتى، وعقودها سلسلة من جماجم، ووجهها وثديها تلطخها الدماء، ومن أيديها الأربعة يدان تحملان سيفاً ورأساً مبتوراً، وأما اليدان الأخريان فممدودتان رحمة وحماية، لأن "كالى - بارفالى" هى كذلك إلهة الأمومة كما أنها عروس الدمار والموت، وفى وسعها أن تكون - حسبما يتصور الهنود - رقيقة الحاشية كما فى وسعها أن تكون قاسية، وفى مقدورها أن تبسم كما فى مقدورها أن تقتل، ولعلها كانت ذات يوم إلهة أما فى سومر، ومن ثم جاءت إلى الهند قبل أن تتخذ هذا الجانب البشع من جانبيها^(٣).

ولاشك أنها هى وزوجها - فيما يقول ول ديورانت - قد اتخذا أبشع صورة ممكنة لكى يلقيا الرعب فى نفوس الرعايد من عبادها فيحتشموا أو أن تكون هذه البشاعة كلها قد أريد بها أن يلقي الرعب فى نفوس العباد فيجودوا بالعطاء للكهنة^(٤):

(١) المصدر السابق ص ٢٠٦.

(٢) الهند وجيرانها ص ١٠٩ - ٢٠٦.

(٣) المصدر السابق ص ٢٠٦.

(٤) المصدر السابق ص ٢٠٦ - ٢٠٧.

إحراق الأرملة والانتحار المقدس:

وهناك توضيحية من نوع مختلف عند الهنود تتمثل في إحراق الأرملة حية بعد موت زوجها، وفي إقدام عدد من الناس على الموت حرقاً أو غرقاً كنوع من الانتحار المقدس.

يقول البيروني ت ٤٤٠ هـ "وأما حق الحى في جسده فلا يميل فيه إلى الإحراق إلا الأرملة التى تؤثر اتباع زوجها أو الذى مل حياته وتبرم بجسده من مرض عياء وزمانه لازمة أو شيخوخة وضعف"^(١).

إحراق الأرملة:

يذكر المسعودى أن من عادات الخزر الجاهلية أن يحرقوا موتاهم ودواب ميتهم وآلاته والحلى، وأنه إذا مات الرجل أحرقت معه امرأته وهى فى الحياة، وإن ماتت المرأة لم يحرق الرجل، وأن النساء يرغبن فى تحريق أنفسهن لدخولهن عند أنفسهن الجثة.

ثم قال "وهذا فعل من أفعال الهند، إلا أن الهند ليس من شأنها أن تحرق المرأة مع زوجها إلا أن ترى تلك المرأة"^(٢).

ويذكر ول ديورانت أن عادة إحراق الأرامل على الكومة التى احترق فيها أزواجهن^(٣) جاءت إلى الهند من خارج، ويقول عنها "هيرودوت" إنها كانت عادة

(١) تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة ص ٤٨٠، طبع بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بجيدر آباد الدكن - الهند ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٨ م نشر عالم الكتب - بيروت.

(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر تصنيف الرحالة الكبير والمؤرخ الجليل أبى الحسن على بن الحسين بن على المسعودى ص ١٧٩ بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد - دار الفكر بيروت الطبعة الخامسة ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م.

(٣) لا يزال الهنود وبعض الشعوب الوثنية المعاصرة يقومون بإحراق موتاهم ويذكر أبو الريحان البيرونى أن أجساد الموتى فى الهند كانت فيما مضى من الأزمنة الأولى تدفع إلى السماء بأن تلقى فى الصحارى مكشوفة لها ويخرج المرضى إليها وإلى الجبال ويتكون فيها، فإن ماتوا كانوا كما قلنا وإن أبلوا رجعوا بأنفسهن إلى منازلهم.

جارية بين السُّكَّيت القدماء، وأهل تراقياً، ولو كان لنا أن نصدقه في روايته - فيما يقول ديورانت - لعلمنا إذن أن زوجات الرجل من أهل تراقياً كن يقتتلن تسابقاً على امتياز القتل على قبر الزوج^(١).

ثم يرجح ول ديورانت أن هذه الشعيرة قد هبطت إلى الهنود من عادة قديمة كادت تشمل شعوب العالم الوثنية القديمة كلها، وهى التضحية بواحدة أو أكثر من زوجات الأمير أو الغنى أو من خليلاته، والتضحية معها بطائفة من عبيده، وغير ذلك مما لا بد من تقديمه قرباناً إثر وفاته، وذلك ليعنى هؤلاء بالميت في الحياة الآخرة^(٢).

ويذكرها كتاب "آثار فافيدا" على أنها عادة قديمة، أما "رج فيدا" فيذكر لنا أن

= ثم جاء بعد ذلك من تولى وضع السنن وأمرهم بدفعها إلى الريح. فأقبلوا على بناء بيوت لها مسقفة بحيطان مشبكة يهب الريح منها عليها وعلى مثال الحال في نواويس المجوس، ومكثوا على ذلك برهة إلى أن رسم لهم "نارين" دفعها إلى النار فمئذ ذلك الوقت يحرقونها فلا يبقى منها شيء من ضرر أو عفونة أو رائحة إلا ويتلاشى بسرعة ولا يكاد يذكر (تحقيق ما للهند ص ٤٧٧ - ٤٧٨).
ويذكر ول ديورانت أن الطريقة المألوفة في أيام بوذا كانت هى الطريقة الزردشتية في تعريض الجثة لسباع الطير، إلا أن كان الميت من الأعلام البارزين، فعندئذ تحرق جثته بعد موته، على كومة من الحطب، ثم يدفن رماده في ضريح يحفظ ذكره ثم عمت هذه الطريقة في إحراق الجثة الناس جميعاً بعد، حتى لترى كل ليلة حطباً يجمع ويكرم لإحراق الموتى، الهند وجيرانها ص ١٩٣.
ويعلل الهنود ذلك - كما يقول البيرونى - بأن في الإنسان نقطة بها الإنسان إنسان وهى التى تتخلص عند انحلال الأمشاج بالإحراق وتبددها، ورأوا في هذا الرجوع أن بعضه يكون بشعاع الشمس تتعلق به الروح وتصعد وأن بعضه يكون بلهب النار ورفعها إياها، ويرون من حق جثة الميت على الورثة أن تغسل وتعطر وتكفن ثم تحرق بما أمكن من صندل أو حطب، وتحمل بعض عظامه المحترقة إلى نهر "كنك" وتلقى فيه ليجرى عليها كما جرى على عظام أولاد "سكر" المحترقة، فأنقذهم - فيما يزعمون - من جهنم وحصلهم في الجنة، وي طرح باقى رماده في بعض الأودية الجارية، ويقبر موضع احتراقه ببناء شبه ميل عليه مجصص، ولا يحرق من الأطفال ما قصر سنه عن ثلاث، ومن عجز عن الإحراق مال به إلى الإلقاء في الصحراء أو في الماء الجارى، تحقيق ما للهند ص ٤٧٩ - ٤٨٠.

(١) الهند وجيرانها ص ١٨١.

(٢) المصدر السابق.

هذه العادة في العصر الفيدي كانت قد خف شأنها حتى أصبحت محصورة في مطالبة الأرملة بالرقاد على كومة الحطب التي أعدت لزوجها قبل إحراق جثته.

ثم تعود قصيدة "ماها بهاراتا" فتصف هذه العادة الاجتماعية وصفاً يدل على عودتها كاملة بغير شعور من الناس بفداحة ما يفعلون.

وهي تذكر أمثلة كثيرة لهذه العادة التي تسمى "سوتي" ومعناها الزوجة المخلصة لزوجها" ثم تضع للناس قاعدة عامة مؤداها أن الأرملة الطاهرة لا تحب أن تحيا بعد زوجها بل تراها تدخل النار فخورة بصنيعها^(١).

ولعل هذا الشعور بالفخر من الزوجة هو ما عبر عنه المسعودي وأشرنا إليه آنفاً من أن المرأة كانت ترغب في تحريق نفسها اعتقاداً منها أنها بذلك تدخل الجنة في الآخرة وأن ذلك كان برغبة منها وليس بإكراه من الناس وضغط من المجتمع.

فقد انتشرت هذه العادة في حكم المغول انتشاراً واسعاً على الرغم من كراهية المسلمين لها، وفشل ملوك المسلمين، حتى "أكبر"^(٢) بكل نفوذه، في زحزة هذه العادة من النفوس.

فقد حاول "أكبر" ذات مرة أن يشن عروسا هندية عن تقديم نفسها طعاماً للنار على كومة الحطب التي أحرقت خطيبها الميت، وتوسل إليها البراهمة بما يؤيد رجاء الملك، لكن العروس أصرت على التضحية. فلما دنت منها ألسنة اللهب، وكان

(١) الهند وجيرانها ص ١٨١ - ١٨٢.

وكان الهنود في الغالب يحرقون جسد الزوجة في حفرة من الأرض وبعضهم كانوا يدفنونها حية، كما كان يحدث بين قبيلة "تلوج" في الجنوب ول ديورانت: الهند وجيرانها ص ١٨٢.

(٢) الملك "أكبر" هو أحد الملوك المسلمين الذين حكموا بلاد الهند وكان أبوه هيون ابن بابور قد سماه محمداً تبركا باسم النبي ولكن الهنود أطلقوا عليه "أكبر" ومعناها البالغ في عظمته حدّاً بعيداً "ويعتبر جده" مؤسس أسرة المغول وأول إمبراطور مغولي سيطر على الهند وكان اسمه زهير بن محمد ويرجع نسبه إلى تيمور وجينكيز خان.

راجع تفاصيل الحديث عنه وعن ملكه المصدر السابق ص ١٣١ - ١٤٤.

دانيال "ابن - أكبر - عندئذ ماضيًا في إقناعها بالعدول أجابته قائلة: "كفى كفى" (١).

وحدث كذلك لأرملة أخرى أن رفضت مثل هذه التوسلات بالإقلاع عن التضحية بنفسها، ووضعت إصبعها في شعلة مصباح حتى التهمت النار، ولكونها أمسكت عن إظهار ألمها بأية علامة من علاماته، فقد عبرت عن ازدراءها لأولئك الذين نصحوها بالإقلاع عن إحراق نفسها جرياً مع الطقوس (٢).

وفي "فيجايا ناجار" كان قتل الزوجة هذا يتخذ صورة جماعية فلا يكتفى فيه بقتل زوجة واحدة أو عدد قليل من زوجات الأمير أو القائد بعد موته، بل كان لابد لكل زوجاته أن يتبعنه إلى الموت.

ويروى لنا "كونتي" أن "الرايا" أو الملك قد اختار ثلاثة آلاف من زوجاته البالغ عددهن اثني عشر ألفاً، ليكن مقربات له "على شرط أن يحرقن أنفسهن مختارات عند موته، وإن ذلك يعد شرفاً عظيماً لهن" (٣).

وبذلك فإنه من اليسير لنا - وليس من العسير علينا كما يقول ول ديورانت - أن نحكم إلى أي حد كانت الأرملة الهندية في عصور الهند الوسطى راضية النفس عن هذه العادة بقوة التأثير الديني والعقيدة، وبقوة الرجاء في أن تعود إلى الاتحاد بزوجها في الحياة الآخرة.

فقد خلع البراهمة في آخر الأمر على هذه العادة قداسة دينية تحميها من العبث - بعد أن عارضوها أول الأمر ثم عادوا فقبلوها - وذلك بأن جعلوها مرتبطة بأبدية الرابطة الزوجية: فالمرأة إذا ما تزوجت رجلاً كان عليها أن تظل زوجته إلى الأبد، وستعود إلى الارتباط الزوجي به في حياته المقبلة (٤).

(١) الهند وجيرانها ص ١٨٢.

(٢) المصدر السابق ص ١٨٢ - ١٨٣.

(٣) المصدر السابق ص ١٨٣.

(٤) المصدر السابق ص ١٨٢.

وهذه الملكية المطلقة من الزوج لزوجته، اتخذت في "راجستان" صورة ما يسمونه "جوهور" وهي عادة تقضى على الرجل من أهل راجيوت، إذا ما أصابه نوع معين من الهزيمة أن يضحي بزواجه قبل أن يتقدم هو إلى الموت في ساحة القتال^(١).

ويبين البيروني أن هذه العادة - عادة إحراق الأرملة - كانت تتم عن رغبة الأرملة واختيارها فيذكر أن المرأة إذا مات زوجها فليس لها أن تتزوج، وهي بين أحد أمرين - إما أن تبقى أرملة طول حياتها، وإما أن تحرق نفسها وهو أفضل لها لأنها تبقى في عذاب مدة عمرها^(٢) وحفظها^(٣).

وكلام البيروني يفيد أن الهنود لجأوا إلى فرض ذلك بقوة القانون "الرسم" بدعوى الحفاظ على نساء الملوك خاصة خشية الانحراف والوقوع في الزلات^(٤).

معنى ذلك أن هذه العادة مع كونها كانت تنفذ برغبة المرأة حرصًا منها على تطبيق الدين - وطاعة الإله وأملا منها في إبقاء الرابطة الزوجية في الآخرة - كانت في بعض الأحيان وعلى نوعية من الناس - تفرض بقوة القانون.

ينقل ول ديورانت عن سترابو قوله إن عادة قتل الزوجة بعد موت زوجها كانت شائعة في الهند أيام الإسكندر وإن قبيلة "كاثي" وهي قبيلة تسكن البنجاب - اتخذت من هذه العادة قانونًا حتى لا تدس زوجة زوجها السم فتقتله^(٥).

وعلى أي حال فإن هذه العادة قد اتخذت في الاضمحلال شيئًا فشيئًا حتى تم إلغاؤها نهائيًا.

(١) المصدر السابق.

(٢) تحقيق ما للهند ص ٤٧٠.

(٣) أبو الحسن الندوي ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٦٠ - ٦١ نشر دار الأنصار بالقاهرة الطبعة العاشرة ١٩٧٧م.

(٤) تحقيق ما للهند ص ٤٧٠.

(٥) الهند وجيرانها ص ١٨٢.

يقول أبو الأعلى المودوى "إن الهنود يحرقون موتاهم، وكانوا فيما مضى يحرقون زوج الميت معه حياً، حتى منعهم الحكومات المسلمة والحكومة الإنجليزية بعدها من هذا الرسم القبيح"^(١).

ويذكر أبو الحسن الندوى أن هذا الفعل كان تقليدًا فاشيًا في الطبقات الشريفة والمجتمعات الأرستقراطية، وكان دليلاً على وفاء الزوجة للزوج وشرفها، وأنه قد قل عدد هذه "المتحركات" بتأثير الحكومات الإسلامية وتدخل الحكام المسلمين، كما صرح بذلك الرحالة الفرنسي الدكتور "بريتر" حتى ألغاه الإنجليز في العهد الأخير إلغاء تاماً^(٢).

وإذا كان هذه العادة قد تم إلغاؤها نهائياً فإنها قد استبدلت في بعض بلاد الهند بنظام التضحية التمثيلية.

يذكر الدكتور على عبد الواحد وافي أنه في كثير من بلاد الهند كان يعد من مظاهر البر والوفاء أن تتحر المرأة المتوفى عنها زوجها بأن تحرق نفسها، وأن هذا التقليد قد ظل سائداً لديهم إلى عهد قريب ثم استبدل به في بعض بلاد الهند انتحار تمثيلي، فكان يكتفى عقب وفاة الزوج بأن يؤتى بكومة حطب وتشعل فيها النار، ويؤتى بزوجة المتوفى وتمد على هذه الكومة، وتظل كذلك حتى يقرب اللهب منها^(٣).

ويرى ول ديورانت أن هذه العادة أخذت تقل شيئاً فشيئاً كلما ازدادت الهند

(١) الحجاب ص ٣٨ دار العدالة للطباعة والنشر بالقاهرة.

وأنه قد قل عدد هذه "المتحركات" بتأثير الحكومات الإسلامية وتدخل الحكام المسلمين، كما صرح بذلك الرحالة الفرنسي الدكتور "بريتر" حتى ألغاه الإنجليز في العهد الأخير إلغاء تاماً^(١).
وإذا كانت هذه العادة قد تم إلغاؤها نهائياً فإنها قد استبدلت في بعض بلاد الهند بنظام التضحية التمثيلية.

يذكر الدكتور على عبد الواحد وافي أنه في كثير من بلاد الهند كان يعد من.

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٦١.

(٣) غرائب النظم ص ٢٠٢.

اتصالاً بأوروبا، وبالرغم من ذلك فإن الأرملة لم تزل تعاني صعباً كثيرة، فمادام الزواج قد ربط المرأة بزوجها رباطاً أبدياً، فإن زواجها مرة ثانية بعد موت زوجها كان يعد جريمة فادحة، ومن نتائجه المحتمومة أن يحدث للزوج اضطراباً في حياته المقبلة.

وعلى ذلك كان لابد للأرملة وفق القانون البرهمي - وقد سبق أن أشرنا إلى ما ذكره البيروني في هذا الشأن - أن تظل بغير زواج وأن تحلق شعرها وتحيا حياتها (إذا لم تؤثر لنفسها القتل في نار زوجها) معنية بأطفالها ومشتغلة بأعمال البر والإحسان، ولم يكن يحكم على الأرملة بالفقر، بل الأمر على عكس ذلك، إذا كان لها الحق الأول في أملاك زوجها^(١).

ويذكر البيروني أن الزوجة إن لم تحرق نفسها وآثرت الحياة يكون على الوارث رزقها وكسوتها مادامت^(٢).

غير أن هذه القواعد لم تجد قبولاً إلا عند النساء المحافظات على التقاليد من نساء الطبقتين العيا والوسطى - وهؤلاء نسبتهن ثلاثون في المائة من مجموع السكان - وأما المسلمون والسيخ والطبقات الدنيا فقد أهملوا تلك القواعد إهمالاً تاماً^(٣).

الانتحار المقدس:

لقد ساد الاعتقاد في بلاد الهند أن الانتحار إذا قصد به التقرب إلى الآلهة أو التضحية بالنفس في سبيلها يصبح في ذاته عبادة دينية على أن يتم ذلك في صورة من الصور التي تحددها التقاليد والعادات.

ومن هذه الصور - التي ينقلها الدكتور وافي عن ويستر مارك - أن يصوم الشخص عن الطعام والشراب حتى يموت، وأن يلطخ جسمه كله بروت البقر

(١) الهند وجيرانها ص ١٨٣.

(٢) تحقيق ما للهند ص ٤٧٦.

(٣) الهند وجيرانها ص ١٨٣.

ويشعل النار فيه (يلاحظ أن البقر حيوان مقدس في الديانة الهندية) ^(١)، وأن يقبر نفسه في الجليد حتى يقضى نحبه، وأن يغرق نفسه في مصب من مصبات الجنج في أطراف بلاد البنغال على أن يظل يعدد خطاياهم ويردد عبارات التوبة والندم حتى تفرسه التماسيح، وأن يذبح نفسه في مدينة آلاه آباد حيث يلتقى نهر الجنج بنهر جومنا، وأن يظل على قمة من قمم جبال الهملايا حتى يموت من البرد، وأن يغرق نفسه أو يدفن حيًّا إذا كان مصابًا بالجذام أو بمرض لا يرجى برؤه على أن تنتقل روحه التي تطهرت بهذا الانتحار إلى جسم معافي سليم، وأن يقذف بنفسه من شاهق ليكفر بذلك عن سيئاته أو ليصبح قديسًا في الحياة الأخرى، أو ليفي بنذر نذرتة أمه، وأن ينتحر البرهمي (طبقة البرهميين هي طبقة رجال الدين،

(١) تعتبر البقرة أكثر الحيوانات قدسية عند الهندي، بل إن فكرة تقديسها هي محور الديانة الهندوسية كما يقول غاندي، فترى تماثيل مصنوعة من كل مادة وفي شتى الأحجام، تراها في المعابد وميادين المدن، وأما البقرة نفسها فهي أحب الكائنات الحية جميعًا إلى الهنود، ولها مطلق الحرية في ارتياد الطرقات كيف شاءت، ويستخدم روثها وقودًا أو مادة مقدسة يتبركون بها!! ويولها خمر مقدس يطهر كل ما في الجسم من نجاسة في الظاهر والباطن!! فكل إفرازاتها طاهرة، فبولها يجب الاحتفاظ به باعتباره أطهر المياه المقدسة تسمح ذنوب من يمسح بها كل جسده، وروثها لا يعادله شيء في التطهير، وأى بقعة يصيبها شرف إفرازات البقرة تظل إلى الأبد أرضًا طاهرة، وأما الرماد المتخلف عن حرق الروث بعد تجفيفه فهو كاف لتحويل أى خاطئ إلى قديس!! وتعامل البقرة على أنها إله عظيم، فتزين بالورود، وتغسل أقدامها بالمياه، وتوضع على جبهتها الزيوت العطرية والمساحيق البيضاء وتعلق في رقبتها الأجراس!!

وأما إزالة خطايا الفرد والتكفير عما سلف منه. فيكون بأكله خليطًا مكونًا من إفرازات البقرة الخمس: اللبن، والقشدة، والزبد، والروث، والبول، فمن يأكل هذا المخلوط ضمن لنفسه التطهر من ذنوبه كلها عن حياته المديدة السابقة!!

وإذا ماتت البقرة وجب دفنها بجلال الطقوس الدينية، ولا يجوز للهندي تحت أى ظرف أن يأكل لحمها أو أن يصطنع من جلدها لباسًا يرتديه، وقد بلغ عدد البقر ربع السكان في أيام ول ديورانت (صدر كتاب قصة الحضارة في الأصل الإنجليزي عام ١٩٣٥م)، والذي يبعث على السخرية المرة في الأمر هو عقيدة البراهمة بأن الأبقار لا يجوز ذبحها قط، وأن الحشرات لا يحل إيذاؤها قط، وأن الأرامل من النساء ينبغى أن يحرقن أحيانًا (راجع ول ديورانت الهند وجيرانها ص ٢٠٨ أحمد عبد المنصف محمود: في بلاد البقرة المقدسة ص ٩٠ - ٩٢ دار الكتاب العربى للطباعة والنشر.

وهى أرقى طبقة فى الديانة البرهمية^(١) لتأثر روحه ممن أساء إليه أو من أحد خصومه^(٢).

وقد سبق أن أشرنا إلى قول البيرونى من أن إحراق الحى فى جسده لا يتم إلا للأرملة التى تؤثر اتباع زوجها، وكذلك الأمر للذى مل حياته، وتبرم بجسده من مرض عياء وزمانة لازمة أو شيخوخة وضعف^(٣).

ثم يقول "وإنما يؤثره "بيش" أو "شودر" فى الأوقات المرجوة الفاضلة طلباً لحال أفضل مما هو عليه عند العود، ولا يجوز ذلك بالنص لبرهمن أو "كشتر" ولأجل هذا يقتل نفسه من يقتلها منهم فى أوقات الكسوف، أو يستأجر من يغرقه فى نهر "كنك" ويتولى إمساكه حتى يموت^(٤).

ويذكر ول ديورانت أنه فى عصر "يوان شوانج" لم يكن من الحوادث النادرة أن يقبل الكهول المتقدمون فى السن على الموت راضين، فيطلبون إلى أبنائهم أن يسبحوا فى زورق على نهر "الكنج" إلى منتصفه حيث يقذفون بأنفسهم فى نهر الخلاص^(٥).

ووصف البيرونى هذا الفعل فذكر أن هناك شجرة عظيمة على ملتقى نهري "جهن" و"كنك" تعرف بيرياك من جنس الشجر التى تُسمى "ير" وخاصيتها أنه يبرز من فروعها نوعان من الأغصان أحدهما إلى فوق كما لسائر الأشجار، والآخر إلى أسفل على هيئة العروق غير مورق.

(١) هناك أربع طبقات فى الديانة البرهمية الهندية: الطبقة الأولى: طبقة البراهمة ويزعمون أنهم خلقوا من رأس وفم الإله، والطبقة الثانية طبقة الجند والمحارين وزعم البراهمة أنهم خلقوا من ذراعى الإله والطبقة الثالثة طبقة الزراع والحرفيين وقد خلقوا من فخذى الإله والطبقة الرابعة والمنحطة تماماً طبقة المنبوذين وقد خلقوا حسب زعم البراهمة من قدمى الإله (راجع تحقيق ما للهند ص ٧٥-٧٩، الهند وجيرانها ص ١٦٤ - ١٧٠).

(٢) غرائب النظم والتقاليد والعادات ص ٢٠٢.

(٣) تحقيق ما للهند ص ٤٨٠.

(٤) المصدر السابق.

(٥) الهند وجيرانها ص ١٩٣.

فإن دخل الأرض صار للغصن بمنزل العماد، وهىء ذلك لها لفرط انبساط فروعها، وعند هذه الشجرة المذكورة يقتل أولئك أنفسهم بأن يصعدوها ويرموا بأنفسهم إلى ماء كنك^(١).

ويصف المسعودى هذا الفعل أيضًا فيذكر أن نهر الكنك هو نهر الهند، ويمر بكثير من جبال السند، وأنه نهر حاد الانصباب والجريان، عليه يعذب أكثر الهنود أنفسهم بالحديد ويغرقونها زهدًا في هذا العالم ورغبة في النقلة عنه، وذلك أنهم يقصدون موضعًا في أعلى هذا النهر المعروف بالكنك، وهو جبال عالية وأشجار عادية، ورجال جلوس، وحدائد وسيوف منصوبة على ذلك الشجر، وقطع من الخشب، فتأتيهم الهند من الممالك النائية، والبلدان القاصية، فيسمعون كلام أولئك الرجال المرتبين على هذا النهر، وما يقولون من تهديدهم في هذا العالم والترغيب فيما سواه، فيطرحون أنفسهم من أعلى تلك الجبال العالية على تلك الأشجار العادية والسيوف والحدائد المنصوبة، فيتقطعون قطعًا، ويصيرون إلى هذا النهر أجزاء، وما ذكرنا فموصوف عنهم، وما يفعلون على هذا النهر كذلك^(٢).

ومثل هذا الانتحار في ظروف معينة قد صادف في الشرق قبولاً - كما يقول ول ديورانت - أكثر مما صادف في الغرب، فكان مباحًا في عهد "أكبر" للكهول وللمرضى الذين لا رجاء في شفائهم (وهو ما أشار إليه المؤرخ المسلم البيرونى كما سبق أنفاً) ولأولئك الذين ابتغوا تقديم أنفسهم قربانًا للآلهة.

وكان من بين الهنود آلاف كان آخر عبادتهم أن يجيعوا أنفسهم حتى الفناء، أو أن يدفنوا أنفسهم في الثلج، أو يهبلوا روث البقر ثم يشعلوا فيه النار، وأن يتركوا أنفسهم للتماسيح لتلتهمهم عند مصب الكنج^(٣).

(١) تحقيق ما للهند ص ٤٨٠.

(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ١ ص ٢٠٨.

(٣) الهند وجيرانها ص ١٩٣ - ١٩٤.

ويذكر المسعودي أن الهنود يعذبون أنفسهم بأنواع العذاب من دون الأمم، فقد تبينوا أن ما ينالهم من النعيم في المستقبل مؤجلاً لا يكون بغير ما أسلفوه من تعذيب أنفسهم في هذه الدار معجلاً.

وتحدث عن لون من هذا التعذيب الذي يفرض على الموت فقال:

"ومنهم من يصير إلى باب الملك يستأذن في إحراقه نفسه، فيدور في الأسواق وقد أجمعت له النار العظيمة وعليها من قد وكل بإيقادها.

ثم يسير في الأسواق وقدامه الطبول والصنوج، وعلى بدنه أنواع من خرق الحرير قد مزقها على نفسه، وحوله أهله وقرابته وعلى رأسه إكليل من الريحان، وقد قشر جلده عن رأسه وعليها الجمر وعليها الكبريت والسندروس، فيسير وهامته (تتحرق) وروائح دماغه تفوح وهو يمزغ ورق التنبول^(١).

فإذا طاف هذا المعذب لنفسه بالنار في الأسواق، وانتهى إلى تلك النار، وهو غير مكترث ولا متغير في مشيته، ولا متهيّب في خطوته، ففيهم من إذا أشرف على النار وقد صارت جمرًا كالتل العظيم، يتناول بيده خنجرًا - ويدعى الجريء - عندهم - فيضعه في لبتة^(٢).

ويعرض المسعودي لحادثة من هذا النوع شاهدها بنفسه فيذكر أنه حضر ببلاد صيمور من بلاد الهند من أرض اللار من مملكة البلهرا، وذلك في سنة أربع وثلثائة، وكان الملك يومئذ على صيمور المعروف بحاج، وبها يومئذ من المسلمين نحو من عشرة آلاف قاطنين، فشاهد بعض فتيان الهند، وقد طاف على ما وصف - آنفاً - في أسواقهم، فلما دنا من النار أخذ الخنجر فوضعه على فؤاده فشقه، ثم أدخل يده

(١) والتنبول في بلاد الهند ورق ينبت كأصغر ما يكون من ورق الأترج يمزغ هذا الورق بالنورة المبلولة مع حب الفوفل، وهو الذي غلب على أهل مكة وغيرهم من بقية أهل الحجاز واليمن في هذا الوقت مضغه بدلاً من الطيب.

راجع تفصيل الحديث في مروج الذهب ج ١ ص ٢٠٩ - ٢١٠.

(٢) راجع مروج الذهب ج ١ ص ٢٠٩ - ٢١٠.

الشمال فقبض على كبده فجذب منها قطعة وهو يتكلم فقطعها بالخنجر، فدفعها إلى بعض إخوانه تهاوناً بالموت ولذة بالنقلة، ثم هوى بنفسه في النار^(١).

وقد ساد في الهند كذلك تقليد غريب يطلق عليه اسم (دهارنا) وذلك أن الدائن إذا ما طله مدينه، يذهب إلى بيته ويتهدهد به بأن يظل جالساً أمام بابه حتى يموت من الجوع والعطش والبرد إذا لم يوفه دينه.

ويعد هذا - فيما يقول الدكتور وافي - أعنف إجراء يمكن أن يلجأ إليه الدائن الممطول، ويتوجس المدين خفية من نتائج هذا الانتحار، فلا يدخر وسعاً في سداد ما عليه، وخاصة إذا كان الدائن برهميا، يخشى من بطش روحه الشديد - في زعمهم وحسب اعتقادهم - إذا أنقذ ما هدد به^(٢).

أما ما أشرنا إليه آنفاً من انتحار البرهمي لتأثر روحه ممن أساء إليه أو من أحد خصومه فقد ذكر ول ديورانت أنه نشأ بين البراهمة نوع من "الهاراكيري"، (وهو اسم للانتحار عند اليابانيين يأتيونه تخلصاً من عار) فيتتحر المنتحر ليرد عن نفسه أذى أو يحتج على إهانة.

وحدث أن فرض أحد ملوك راجيوت ضريبة على طبقة الكهنة، فطعن عدد كبير من أغني البراهمة أنفسهم انتحاراً بين يديه، وهم يستنزلون عليه لعنة هي في زعمهم أبشع اللعنات وأشدّها أثراً - ألا وهي لعنة يستنزلها كاهن وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة^(٣).

ومن ذلك أيضاً ما يحكى من أن إحدى البرهميات قد غرر بها أحد الحكام حتى نال منها مأربه فأحرقت نفسها وأخذت في ساعاتها الأخيرة تصب اللعنات على هذا الحاكم وأسرتة، فاستجاب الإله دعاءها، وأنزل عليهم سخطه وسلط عليهم

(١) المصدر السابق ص ٢١٠ - ٢١١.

(٢) غرائب النظم والتقاليد والعادات ص ٢٠٣.

(٣) ول ديورانت - الهند وجيرانها ص ١٩٤.

الكوارث والمصائب، واضطربهم إلى الرحيل عن البلاد تاركين ديارهم وأموالهم، ومن ذلك الصين أصبح قبر هذه البرهمية ضريحاً مقدساً يزوره الناس ويؤدون فيه صلواتهم ومناسكهم^(١).

ومن الحكايات التى تحكى كذلك أن أحد الحكام قد منح قطعة أرض لأحد البرهمنين، فبنى هذا البرهمى مسكناً عليها، ثم رجع الحاكم فى هبته فهدم المنزل واسترد الأرض، فذهب البرهمى إلى بيت هذا الحكام وظل جالساً أمام بابه صائماً عن الطعام والشراب والنطاء حتى مات من الجوع والعطش والبرد، فتأثرت روحه من الحاكم فأهلكته ودمرت بيته^(٢).

بالإضافة إلى هذا فإنه إذا مات الملك من ملوك الهند قديماً أو قتل نفسه حرق خلق من الناس أنفسهم لموته، ويدعى هؤلاء بلا نجربة واحدهم بلا نجرى، وتفسير ذلك المصادق لمن يموت، فيموت بموته، ويحيا بحياته^(٣)!!

ويذكر المسعودى أن للهند أخباراً عجيبة - غير ذلك - تجزع من سماعها النفس: من أنواع الآلام والمقاتل التى تألم عند ذكرها الأبدان، وتقشعر منها الأبدان، لكنه أتى على كثير من عجائب أخبارهم فى كتابه المفقود للأسف "أخبار الزمان"^(٤).

(١) غرائب النظم والتقاليد والعادات ص ٢٠٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) مروج الذهب ج ١ ص ٢١١.

(٤) المصدر السابق.

الفصل الخامس

القرايين البشرية عند الكنعانيين والعمونيين والمؤابيين

أولا: عند الكنعانيين:

إذا كانت عادة تقديم القرايين البشرية قد وجدت لدى الأمم التي أشرت إليها أنفا فانه قد اشتهر تقديمها بشكل خاص عند الكنعانيين الذين يسمون أيضا في بعض مراحلهم التاريخية بالفينيقيين أو القرطاجيين^(١).

يذكر موسكاتى أن القرايين الكنعانية كانت تضم ضحايا من البشر إلى جانب قرايين الحيوان المألوفة^(٢).

ويرى كثير من العلماء أن التضحية البشرية كانت تعد من أهم الطقوس الدينية القرطاجية حيث عثر في معبد الإلهة تانيت في سالمبو، قرطاجة على أدلة أثرية تثبت ذلك وخاصة بالنسبة لتقديم الأطفال والأسرى تقربا للقوى الإلهية^(٣).

ويذكر ولز أن الفينيقيين وبخاصة سكان قرطاجة أعظم مستقراتهم في إفريقيا عرفوا بتقديم التضحيات البشرية حيث جرت العادة أنه كلما مات رئيس لهم

(١) لمعرفة مزيد من التفاصيل عن الكنعانيين في مراحلهم التاريخية المختلفة راجع رسالتى للدكتوراه "تأثر اليهودية بالأديان القديمة" كلية أصول الدين بطنطا.

(٢) الحضارات السامية القديمة ص ١٢٩.

(٣) وجدت في قرطاجة عند موضع معبد تانيت تحت الأرض بأربع طبقات صناديق حمراء بداخلها عظام متحجرة وتبين بعد فحصها أن ١٣٪ منها تحوى عظام حملان وصغار ماعز وأن ٨٥٪ تحوى عظام أطفال لم يتجاوزوا الستة أشهر (راجع كونستنتو: الحضارة الفينيقية ص ١٤٤ - ١٤٦ د. رشيد الناضورى: المدخل في التطور التاريخي للفكر الدينى ص ١٤٤.

يضحي بزوجاته وعبيده وتكسر الحراب والقسي عند قبر حتى لا يكون في عالم الأرواح بلا اتباع ولا أسلحة^(١).

بل إن كوننتو يذهب في كتابه "الحضارة الفينيقية" إلى أنه يجب علينا أن ننسب إلى الفينيقيين دون جدال عار التضحية البشرية حيث كانت التضحية بالطفل البكر عرفا جاريا لدى الكنعانيين في العصر العتيق.

ويذكر أن في حفريات جازر دليلا قاطعا في هذا الصدد، حيث وجدت بها عظام أطفال في حالة بلاء بَيْنَ يَنْ مودعة في أسس المنازل^(٢).

فقد كانت العادة أن يدفن الأولاد بعد تضحيتهم في جرار دقيقة في نهايتها تدخل رءوسهم أولا، وفي أريحا وغيرها من المواقع الكنعانية كانت توضع الجرار تحت أرض المنزل.

وقد اكتشف الأستاذ "ستيوارت ماكاليستر" في هذه الحفريات في فلسطين مكانا للدفن يستلفت النظر، وهذا المكان هو ببساطة حجرة أسطوانية يبلغ ارتفاعها عشرين قدما، واتساعها خمسة عشر قدما، وقد نحتت هذه الحجرة في الصخر وترك مدخلها في قمته على هيئة فتحة دائرية. ويبدو أن هذه الحجرة كانت في الأصل مخزنا للمياه قبل أن تتحول إلى مدفن.

وقد عثر في أرض تلك الحجرة على خمسة عشر هيكلآ آدميا أو بالأحرى أربعة عشر هيكلآ ونصف هيكل، وذلك أنه لم يعثر لهيكل من هذه الهياكل سوى على جزئه العلوى، في حين لم يعثر على جزئه السفلى.

وهذا الهيكل لفتاة تبلغ الرابعة عشرة من عمرها، وقد قطع جسدها أو نشر من الوسط عند الفقرة الثامنة من عمودها الفقرى عند التجويف الصدرى.

وحيث إن الأجزاء الأمامية من الضلوع قد هشمت عند هذا المستوى، فانه من

(١) موجز تاريخ العالم ص ٧٧.

(٢) الحضارة الفينيقية ص ١٤٥.

الواضح أن هذا التهشم قد تم في مرحلة كانت العظام تستند فيها على الأجزاء الرخوة من الجسم.

وأما سائر الهياكل فهي هياكل رجال، اثنان منها لشابين يبلغان من العمر الثامنة عشر وربما التاسعة عشر، والباقي لرجال كاملين النمو معتدلي القوام قويي البنية، ويدل وضع الهياكل على أن أصحابها لم يطرحوا في الحجرة من خلال فتحتها العلوية وإنما هبط بهم رجال إلى داخلها، كما أنه يعتقد أن كميات الفحم الكبيرة التي عثر عليها بين العظام تدل على أن حفلا جنائزيا أو تضحية أو أى طقس مقدس آخر قد أدى داخل حجرة الدفن^(١).

ويعلق جيمس فريزر على ذلك الاكتشاف وبخاصة هيكل الفتاة بأنه يعد أثرا باقيا لعادة التضحية بالإنسان تلك العادة التي لعبت دورا بارزا في الديانة الكنعانية حيث تبين من دراسة هذه الهياكل أن أصحابها ينتمون إلى العنصر الكنعاني الذي كان يستوطن فلسطين قبل غزو العبريين لها^(٢).

ويستدل فريزر على ذلك بالعادة المشابهة لها التي أشار إليها الأنبياء العبريون، وكتاب العصور الكلاسيكية القديمة.

ويدعم هذا الافتراض - فيما يقول فريزر - ما عثر عليه من هياكل أطفال عثر عليها في "جيزر" محفوظة في جرار تحت أرض المعبد، فقد اعتقد الباحثون في العادة، أن هذه المخلفات تشهد على عادة التضحية بالابن الأول تكريما للإله المحلي.

وقد عثر على مزيد من هؤلاء الأطفال المدفونين في جرار حول معبد منحوت في الصخر في بلدة "تعنك" في فلسطين، وقد فسر تحنيط هؤلاء الأطفال على النحو الذي أشرنا إليه^(٣).

(١) راجع جيمس فريزر الفولكلور في العهد القديم جـ ٢ ص ٣٦٢ - ٣٦٣ ترجمة الدكتورة نبيلة إبراهيم - نشر دار المعارف.

(٢) المصدر السابق ص ٣٦٣.

(٣) المصدر السابق.

وكشف في حفائر (كفر الجرة) وهى من المواقع الكنعانية عن صندوق يضم عظام أطفال تحت أساس جزء من سور وهى غالبا ضحية التأسيس، وكشف في قرطاج عند أطلال معبد تانيت تحت الأرض عن صناديق حمراء تضم عظاما متحجرة وكذلك بقايا عقود وطلاسم أخرى^(١).

ثم كشفت الحفريات المتأخرة في جيزر أيضا عن نصف هيكل غلام في السابعة عشرة من عمره، وقد شق جسد هذا الغلام كما حدث مع الفتاة، من وسطه بين الضلوع وتجويف الحوض، ولم يعثر كما هو الحال مع الفتاة، على الجزء السفلى من جسد الغلام.

وإلى جانب الهيكل النصفى للغلام عثر على هيكلين كاملين لرجلين، إلى جانب مجموعة من الأواني الفخارية وضعت فوق الهياكل ومن حولها. وقد عثر على هذا الكشف تحت أساس بناء إن لم يكن أسفله مباشرة^(٢).

ومن ثم فقد أشار "ماكاليستر" إلى أن هذه الهياكل هى بقايا جثث آدمية ضحى بأصحابها وفقا للعادة المنتشرة ودفنوا تحت أساس البناء لإكسابه قوة ومناعة أو لحمايته من الأعداء^(٣).

وتتضح هذه العادة كل الإيضاح - كما يقول فريزر - من خلال نماذج مستمدة من بلاد متعددة، فليس من الضروري أن نسهب في إيضاحها، وإنما يكفينا مثال واحد سجله شاهد عيان، ويتلخص في أن بحارا إنجليزيا اسمه "جاكسون" قد هرب منذ سبعين عاما أو ثمانين عاما مضت، طيلة عامين وحده بين "الفيجانيين" الذين مازالوا متبريرين ملحدين، وقد خلف لنا هذا البحار حكاية تجاربه الساذجة وإن كانت لا تخلو من قيمة.

فبينما كان يقيم مع هؤلاء المتبريرين، تصادف أن كان يبنى بيت الملك أو الزعيم

(١) د/ عبد الحميد زايد: الشرق الخالد ص ٣٠٢.

(٢) الفولكلور في العهد القديم ج ٢ ص ٣٦٦.

(٣) المصدر السابق ص ٣٦٦ - ٣٦٧.

المحلى، ثم أبصر "جاكسون" ذات يوم - بينما كان يقف بالقرب من مكان البناء - رجالا يساقون ويدفنون أحياء في الجحور التى كان سيقام فيها أعمدة البيت.

وقد حاول الأهالى أن يصرفوه عن رؤية هذا المنظر ولكنه أسرع إلى أحد هذه الجحور، حتى لا تتم عملية الخديعة، فأبصر رجلا يقف فى الجحر ويداه تعانقان العمود ورأسه مازال بارزا من بين التراب، فلما سأل الأهالى عن سبب دفنهم لرجال أحياء عند أسفل الأعمدة أجابوه بأن البناء لا يصمد طويلا ما لم يمسك الرجال بدعائمه على الدوام.

فلما سألهم: وكيف يتسنى لهؤلاء الرجال أن يمسكوا دعائم البيت بعد أن يموتوا، أجابوه: بأنه إذا ضحى الرجال بأرواحهم فى محاولة الإمساك بالأعمدة فإن فضيلة التضحية تحض الآلهة على المحافظة على سلامة البناء بعد أن يموت الرجال^(١).

ويعلق فريزر على هذه الحكاية بأن هذا المجرى من التفكير يصلح تماما لأن يفسر وضع هيكل الذكرين اللذين عثر عليهما تحت أساس البناء فى "جيزر" ذلك أن أحد هذين الهيكلين قد عثر عليه وهو يمد يده إلى آنية، كما لو كان يعين نفسه على تناول الطعام وبذلك يصبح قادرا على القيام بهذا العمل الشاق وهو الإمساك بالحائط^(٢).

وجاء فى كتاب "روما وامبراطوريتها" أن العلماء قد تأكدوا من صحة وجود القرايين البشرية عند الكنعانيين ولم يعد لهم مجال لنفيها أو نكرانها على أثر الاكتشاف الذى جاء فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، والحفريات الكاملة التى تمت فى قرطاجة، إثر الحرب الكونية الثانية.

فقد أظهرت هذه الكشوف الأثرية معالم أقدم هيكل من هياكل قرطاجة على مقربة من مرفأ المدينة حيث عثروا على عظام ذبائح بشرية ترجع إلى القرنين الثامن والثانى ق.م.

(١) الفولكلور فى العهد القديم ج ٢ ص ٣٦٧.

(٢) المصدر السابق ص ٣٦٧ - ٣٦٨.

وكان يعلو الذبيحة نصب كتب عليه العبارة التالية:

"إلى الربة تانيت بينيه بعل، وإلى الرب بعل همون مقدمة من فلان ابن فلان، فلتباركه الآلهة^(١)."

ولعل من أشهر الآلهة الكنعانية التى قدم لها الكنعانيون قرابينهم البشرية الإله (مولك) أو (مولوخ).

يقول ول ديورانت "وكانت للفينيقيين آلهة كثيرة، وكان لكل مدينة بعلها (أى سيدها) أو إلهها الخاص وهو فى اعتقاد أهلها جد ملوكها ومخصب أرضها^(٢)".

وكان من أشهر آلهتهم الإله (مولوخ) أى الملك وهو الإله الرهيب، وكان الفينيقيون، إذا حزبهام أمر يضحون بأطفالهم بل بأعز أولادهم فيتقربون له بأن يحرقوهم أحياء أمام ضريحه، فكان الآباء يأتون إلى الحفل وقد أخذوا زيتهم كأنهم فى يوم عيد وكانت دقات الطبول وأصوات المزامير تغطي على صراخ أطفالهم وهو يحترقون^(٣).

وبجانب الإله "مولوخ" كان الكنعانيون يقدمون قرابينهم البشرية إلى الإلهين: ما قرت إله مدينة صور، وبعل همون إله قرطاجنة.

فكان القرطاجيون يقدمون فى كل سنة أحد أبنائهم من الأسر الشريفة ذبيحة للإله ملقرت شفيح مدينة صور الكبير وحاميها، وكانت نفوس الأقدميين تنقبض هلعا كما تنقبض نفوس المحدثين اليوم من تقديم أحد الأطفال ذبيحة للإله بعل همون وهى ذبيحة لم يكن عنها بد فى نظر المسؤولين الذين كثيرا ما كانوا يحاولون

(١) روما وامبراطوريتها، المجلد الثانى من تاريخ الحضارات العام ص ٦٢ تأليف اندريه ايبار، جانين أو بوايه باشراف موريس كروزيه نقله إلى العربية فريد م. داعر وفؤاد ج. أبو ريجان منشورات عويدات بيروت ١٩٨٦ م.

(٢) قصة الحضارة: الشرق الأدنى ص ٣١٥.

(٣) راجع المصدر السابق ص ٣١٥-٣١٨-٣١٩ د/ نجيب ميخائيل: مصر والشرق الأدنى القديم ج ٣ ص ٧٠، دار المعارف بمصر - الطبعة الثانية ١٩٦٤ م.

تجنبها وتفاديها بالتى هى أحسن ولا ينفذونها إلا تحت ضغط الدولة والرأى العام فى حالات الخطر الشديد المهدد لسلامة البلاد^(١).

فقد كان هنالك كما يقول ديودورس الصقلى تمثال للإله ملقرت وقد بسط يديه بانحناء نحو الأرض بحيث ينحدر الولد الذبيحى رويدا ليهوى فى أتون متقدة يرتفع لهيب النار فيها عاليا^(٢).

وإذا نظرنا إلى الصلة الوثيقة بين بعل همون فى قرطاجنة وملقارت فى صور وإلى أن القدماء أدركوا الصلة بين الإلهين إدراكا واضحا فإننا نستطيع - فيما يقول كونتنتو - أن نقرر هذه الصلة بعبادة التضحية البشرية لهذين الإلهين.

ويقرر تيرتوليان أن الناس فى عصره كانوا لا يزالون يقدمون لهما الضحايا البشرية سرا (فى القرن الثالث للميلاد)^(٣).

فقد بقيت هذه العادة لدى الكنعانيين حتى العصر الرومانى.

جاء فى كتاب "روما وامبراطوريتها" أن الذى أدهش الأقدمين وحيرهم هو استمرار بعض الطقوس الدينية عند القرطاجيين التى رأت فيها النخبة من الإغريق والرومان عادة متأخرة وحشية الطابع.

ومن بين هذه الطقوس التى كان الكنعانيون يستسلمون إليها بوحشية تتفزز النفوس لمراها وتشمئز منها لما يرافقها من بويقات هذه الذبائح البشرية، حتى إن بعض الملوك تدخلوا لحمل القرطاجيين على الإقلاع عن هذه العادة الوحشية كالملك داريوس الفارسى والطاغية السيراموزى جيلون وغيرهما، وكل هذه المساعى ذهبت عبثا وبقيت العادة سارية بينهم إلى عهد الإمبراطورية الرومانية المتأخرة يقيمونها خفية ويقبلون عليها تحت جنح الظلام^(٤).

(١) روما وامبراطوريتها ص ٦٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الحضارة الفينيقية ص ١٤٦.

(٤) راجع روما وامبراطوريتها ص ٦١ - ٦٢.

ويذكر كوننتو أن الكنعانيين قد احتفظوا بهذه العادة إلى العصور القريية حتى روى فيلون أنه كان من عاداتهم فى حالات الأخطار العامة أن يضحو بأعز أبناءهم لإبعاد الكوارث عن أنفسهم وروى ديودور الصقلى أنهم ضحو بمائتى طفل فى صقلية^(١).

ثانياً: القرابين البشرية عند العمونيين والمؤابيين:

يشكل كل من العمونيين والمؤابيين - ومعهما الأدوميون - أحد العناصر السامية التى تكونت منها شعوب فلسطين، وكانوا يعرفون بالقبائل أو الممالك الثلاث الصغيرة أو بدول شرق الأردن^(٢).

وفىما يتعلق بالعمونيين فقد كان من صفاتهم - كما ورد فى قاموس الكتاب المقدس - أنهم كانوا قساة القلوب حيث كانوا يقدمون أبناءهم ذبائح للإله "ملكوم" أشهر أصنامهم، والذى سُمى أيضاً بالإله "ملك".

و"ملك" اسم كنعانى معناه ملك، ويسمى ملكوم أى ملككم، وكان العمونيون يذبحون له ذبائح بشرية ولاسيما الأطفال، يقول الربيون إن صنمه كان من نحاس جالساً على عرش من نحاس، وكان له رأس عجلى عليه إكليل، وكان العرش والصنم مجوفين فكانوا يشعلون فى التجويف ناراً حامية جداً حتى إذا بلغت حرارة الذراعين إلى الحمرة وضعوا عليهما الذبيحة فاحترقت عاجلاً، وفى أثناء ذلك كانوا يدقون الطبول لمنع سماع صراخ الأطفال^(٣).

وأما فىما يتعلق بالمؤابيين فقد ورد فى أسفار العهد القديم أن المؤابيين كانوا يقومون بتقديم القرابين البشرية.

(١) الحضارة الفينيقية ص ١٤٥ - ١٤٦ د. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد ص ٣٠٢.

(٢) لمعرفة هذه الممالك الثلاث أصل شعوبهم ونشأتهم راجع رسالتى للدكتوراه ص ٢٥٧ وما بعدها. وجاء فى قاموس الكتاب المقدس أن أرض المؤابيين يقابلها اليوم القسم الشرقى من البحر الميت لمملكة الأردن، وأرض العمونيين منطقة جبلية تقع شرقى نهر الأردن، وهى فى أواسط المملكة الأردنية حالياً (قاموس ص ٦٤٠ - ٩٢٨).

(٣) راجع قاموس الكتاب المقدس ص ٩٣٤ - ٩٣٥.

ففى إحدى المعارك التى دارت بينهم وبين الإسرائيليين فى عصر الانقسام حيث رفض المؤابيون دفع الجزية إلى مملكة إسرائيل فقام ملك إسرائيل وملك يهوذا وملك أدوم بمحاربتهم.

جاء فى سفر الملوك الثانى "ولما سمع كل المؤابيين أن الملوك قد صعدوا لمحاربتهم جمعوا كل متقلدى السلاح فما فوق... فقام إسرائيل وضربوا المؤابيين فهربوا من أمامهم فدخلوا وهم يضربون المؤابيين وهدموا المدن..

فلما رأى ملك مؤاب أن الحرب قد اشتدت عليه أخذ معه سبعمائة رجل مستلى السيوف لكى يشقوا إلى ملك أدوم فلم يقدرُوا.

فما كان من ملك مؤاب واسمه ميشع إلا أن أخذ ابنه الأكبر الذى كان ملكًا عوضا عنه وأصعده محرقة على السور^(١).

وهكذا لم يجد الملك مناصا فى سبيل إحراز النصر إلا أن يقدم ابنه البكر فلذة كبده وولى عهده ذبيحة ومحرقة على سور المدينة قربانا للإله الذى يعبدونه.

والعجيب أن هذا التصرف قد أفزع اليهود مع أنهم يقومون بتقديم القرابين البشرية بل إنهم قدموا النفس الإله الذى قدم له الملك ابنه البكر^(٢).

يذكر سفر الملوك الثانى أنه بعد تقديم الملك ابنه ذبيحة "فكان غيظ عظيم على إسرائيل، فانصرفوا عنه ورجعوا إلى أرضهم"^(٣).

وجاء فى قاموس الكتاب المقدس أنه قد اقشعر شعب إسرائيل من هذا المنظر الفظيع فرفعوا الحصار ورجعوا إلى أرضهم^(٤).

وهذا الإله الذى قدم ملك مؤاب إليه تلك الذبيحة كان يسمى "كموش".

(١) راجع تفاصيل هذه المعركة فى الاصحاح الثالث من سفر الملوك الثانى (٤ - ٢٧).

(٢) سنين هذا فى الباب الثانى إن شاء الله عند حديثنا عن اليهود وتقديمهم للقرابين البشرية.

(٣) ٢٧: ٣.

(٤) ص ٩٤٠.

وهو إله المؤابيين وقد سموا به أمة كموش وشعب كموش^(١) وسمى كموش في العهد القديم "رجس المؤابيين"^(٢).

وفي الكتابة على الحجر المؤابى ينسب الملك ميشع انتصاراته إلى كموش^(٣).

وكانت طريقة عبادته تشبه من كل الوجوه عبادة الإله مولك بتقديم الأولاد ذبائح له^(٤).

والظاهر أن كموش كان يتصل بملكوم إله العمونيين صلة وثيقة^(٥).

(١) عدد ٢١-٢٩، أرميا ٤٨-٤٩.

(٢) قاموس الكتاب المقدس ص ٧٨٧.

(٣) تم اكتشاف هذا الحجر في عام ١٨٦٨ م وهو يحكى انتصارات ميشع - راجع إسرائيل ولفسون: تاريخ اللغات الصامية ص ١٠٥ - ١١١ ومصر والشرق الأدنى القديم ج-٣ ص ٣٥٩ - ٣٦١ ورسالتى للدكتوراه ص ٢٥٨ - ٢٥٩.

(٤) ملوك ثان ٣: ٢٧.

(٥) قضاة ١١: ٢٤، ملوك أول ١١: ٥. قاموس الكتاب المقدس ص ٧٨٧.

الفصل السادس

القرايين البشرية عند اليونانيين والرومانيين

أولا : عند اليونانيين :

يذكر ول ديورانت أن الطقوس الدينية اليونانية لم تكن أقل تنوعا واختلافا من الآلهة التي كانت تحتفل بها وتعظمها^(١): فقد كان للآلهة الأرضية طقوس حزينة يسكن بها غضبها ويتقى شرها^(٢).

ومن القرايين التي كانت تقدم للآلهة اليونانية القرايين البشرية:

يقول ول ديورانت "وعند مسيس الحاجة كان يضحي بالآدميين أنفسهم، فقد ضحى أجمنون مثلا بإفجينيا كى تهب الريح، وذبح أخيل اثني عشر من شباب طروادة على كومة حريق بتركلوس، وكان الضحايا الآدميون يقذف بهم من فوق صخور قبرص ولوكاس استرضاء لأبلو، وآخرون يهدون إلى ديونيسس في طشيوز وتندوس ويقال إن ثمسيكليز ضحى ببعض أسرى الفرس يوم سلاميس، وكان

(١) قسم ول ديورانت الحشد الكبير من الآلهة اليونانية إلى سبع مجموعات: آلهة السماء وآلهة الأرض، وآلهة الخصب والآلهة الحيوانية وآلهة ما تحت الأرض وآلهة الأسلاف أو الأبطال والآلهة الأوليمبية، وبين أن ذكر أسمائها مما يشق على الإنسان (حياة اليونان الجزء الأول من المجلد الثاني من قصة الحضارة ص ٣٢١ ترجمة محمد بدران لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٩م).

ولمعرفة مزيد من المعلومات عن الديانة اليونانية القديمة راجع حديثي عنها في رسالة الدكتوراه (تأثر اليهودية بالأديان القديمة) مع المراجع التي رجعت إليها.

(٢) المصدر السابق ص ٣٤٨.

الأسبارطيون يحتفلون بعيد أرتميس أورثيا بجلد بعض الشبان عند مذبحها جلدا كان يدوم في بعض الأحيان حتى يقضى على المجلودين^(١).

ويذكر الدكتور على عبد الواحد وافي أن نظام التضحية البشرية انتشر انتشارا كبيرا عند قدامى اليونان، وأن معظم ضحاياهم البشرية كانت تقدم لكبير آلهتهم زوس، وكانوا يقدمونها في مناسبات دينية ودنيوية كثيرة، وكان يكثر تقديمها في إبان المجاعات والقطط والحروب وانتشار الكوارث والأوبئة وما إلى ذلك لاسترضاء الإله واستئثار عطفه ورحمته^(٢).

فكان إذا انتشر الوباء في مساليا جئ بمواطن فقير وأطعم من بين المال، وألبس الثياب الكهنوتية، وزين بالأغصان المقدسة، وألقى من فوق صخرة ومن حوله يدعون أن يكفر بعقابه هذا عن سيئات مواطنيه^(٣).

وكان من عادة أهل أثينة إذا داهمهم القحط، أو الطاعون أو غيرهما من الأزمات أن يقدموا للإله، إما حقيقة أو تمثيلا، ضحية بشرية واحدة أو أكثر من واحدة تطهيرا للمدينة، وكان يحدث مثل هذا في كل عام في عيد الثارجليا^(٤).

وكان في اركاديا مذبح ايباخوس لقتل الفتيات بالضرب، وكان الأطفال في لقدمونية يقتلون أحيانا بالضرب على مذبح ديانا أو سيتا^(٥).

وكان الضحايا التي تقدم إلى الإله زيوس تختار من بين أفراد الأسرات الأرستقراطية، وفي مناسبات المجاعات وما إليها كانت تختار في الغالب من الأطفال الصغار^(٦).

ويذكر بطرس البستاني أن عادة القرابين البشرية قد انتقلت إلى بلاد اليونان من

(١) المصدر السابق ص ٣٥٠ - ٣٥١.

(٢) غرائب النظم ص ٨٣.

(٣) ول ديورانت حياة اليونان ص ٣٥١.

(٤) المصدر السابق.

(٥) دائرة معارف بطرس البستاني ج ٨ ص ٣٩.

(٦) غرائب النظم ص ٨٢.

فينيقية وأن الذبائح البشرية عند اليونان كانت أقل مما في البلاد وأن اليونانيين كانوا في بادئ الأمر يكرهونها جدا.

فمن أخبارهم الدالة على ذلك أن ليكادو الاركادى مسخ ذئبا لأنه قرب إلى جوبيتر ذبيحة بشرية ولم يجر ذلك عندهم إلا في أزمان تابعة للزمان المتوغل في القدم^(١).

ويذكر ول ديورانت أن التضحيات البشرية قد خففت على مر الزمن وذلك بأن قصر الضحايا على المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام، وكانوا فوق هذا يخدرون بالخمور، ثم استعيعض عنهم آخر الأمر بالحيوانات^(٢).

ويذكر أن بليداس القائد البثوتى حينما رأى في الليلة السابقة لمعركة لوكترا (٣٧١ ق.م) حلما ظن على أثره أنه يطلب إليه تضحية بشرية على المذبح تكون ثمنا للنصر، نصحه بعض مشيريه أن يلبي الطلب، وعارضه البعض الآخر وقالوا له: "إن هذا العمل الهجى المجرد من كل معانى التقى والصلاح لا يمكن أن ترضى به الكائنات العليا أيا كانت، وأن الجبايرة والمردة ليسوا هم حكام الأرض، بل حاكمها هو أبو الآلهة والخلق عامة، وأن من السخف أن يتصور الإنسان أربابا وقوى عليا يسرها التقتيل والتضحية بالآدميين^(٣)."

وبالرغم من وجود هذه النزعة عند البعض فإن القرابين البشرية كانت سائدة لديهم حتى القرن الثانى بعد الميلاد، فكثير من مؤرخى هذا العهد يذكرون حوادث لأفراد قدموا أنفسهم ضحايا للإله زوس^(٤).

ويذكر ول ديورانت أن زيوس ظل يتقبل الضحايا البشرية في أركاديا حتى القرن الثانى بعد الميلاد^(٥).

(١) دائرة معارف البستانى ج ٨ ص ٣٠٢-٣٠٣.

(٢) حياة اليونان ص ٣٥١.

(٣) المصدر السابق.

(٤) غرائب النظم ص ٨٣.

(٥) حياة اليونان ص ٣٥١.

ثانياً: القرايين البشرية عند الرومانين:

يذكر ول ديورانت أنه لم يكن يقصد بطقوس العبادات في الديانة الرومانية إلا أن تقدم هدية أو ضحية للآلهة لكسب عونها أو اتقاء غضبها، وكان الكهنة يقولون إن الاحتفالات التي تقام لهذا الغرض لا تثمر ثمرتها إلا إذا روعى فيها منتهى الدقة في الأقوال والحركات، وهى دقة لا يستطيع غير الكهنة أن يشرفوا عليها، وإذا وقع خطأ في طقس من هذه الطقوس أيا كان نوعه وجبت إعادته من جديد ولو طلب ذلك إعادته ثلاثين مرة^(١).

وكان من هذه الأضحيات للآلهة التضحية بالآدميين، ومما يجدر ذكره أنه كان لأبد من صدور قانون في عام ٩٧ بعد الميلاد لتحريم هذه العادة، ثم حورت هذه الكفارة تحويراً يبيح للرجل أن يضحي بحياته للدولة كما فعل القنصل يلبوس ديسيوس وولده، وكما فعل ماركس كوريتوس إذ ألقى بنفسه في أخدود شقه زلزال في السوق العامة ليسكن بذلك غضب القوى الأرضية الخفية، وتقول القصة بعد ذلك إن الشق قد التحم وإن الأمور قد عادت إلى مجاريها^(٢).

وبذلك فإن صدور هذا القانون لم يمنع من تقديم القرايين البشرية منعاً باتاً وإنما استطاع الكهنة التحايل عليه وتحويره واستمر الناس في تقديم الذبائح البشرية.

يذكر الدكتور وافي أن نظام التضحية البشرية ظل سائداً عند قدامى الرومان حتى قبيل الميلاد، ففي عام ٩٧ ق.م أصدر مجلس الشيوخ الرومانى مرسوماً يحرم تقديم الضحايا من الآدميين.

ولكن هذا المرسوم لم يقض على هذه التقاليد قضاءً باتاً، ولا أدل على ذلك من أنه قد صدر بعد ذلك مرسوم آخر يجدد التحريم ويزيد في عقوبة من يقدم على تقديم هذا النوع من الضحايا^(٣).

(١) قصة الحضارة الجزء الأول من المجلد الثالث: قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانية ص ١٣٢ -

١٣٣، ترجمة محمد بدران - الطبعة الثالثة ١٩٧٢ م.

(٢) المصدر السابق ص ١٣٣.

(٣) غرائب النظم والتقاليد والعبادات ص ٨٣.

بل إنه جاء في كتاب روما وإمبراطوريتها^(١) أن الذبيحة البشرية كانت شائعة لدى الرومان في العصور القديمة، وأنها قد عادت إلى الظهور بين الحين والآخر، ففي السنة ٢١٦م تحت تأثير القلق الذي أثارته إحدى الكوارث، وبعد استشارة كتب العرافة تم دفن زوجين يوناني وغالي لا يزالان على قيد الحياة.

ويذكر ول ديورانت لما حلت بالرومان تلك الكارثة ولاح أن رومة لن يعصمها عاصم، استولى الرعب على الشعب الروماني المحتاج ونادى "أى إله نرتجيه لينجى رومة من البلاء الذى هى فيه، فحاول مجلس الشيوخ أن يسكن هذا الذعر بالتضحية البشرية، واستدل بذلك على أن الخرافات كانت لا تزال هى المسيطرة على عقول الرومان فى هذا الوقت ٢٠٦م على الرغم من ازدهار الفلسفة^(٢).

وقال بلنيوس المؤرخ إن ذبح البشر قربانا استمر فى الرومان إلى سنة ٩٥ ميلادية وأبطل بقرار روماني سنة ٦٥٧م وأثبت بعضهم أن هذه العادة لم تنقطع حينئذ بل استمر البعض بذبح البشر لمعبوداتهم ولاسيما المعبود بلونوس^(٣).

وكان الإمبراطورون الرومان - كما جاء فى دائرة معارف البستاني - يكررون الأوامر بمنع تلك الذبائح الرجسة الوحشية ومع ذلك لم يتمكنوا من إبطائها حالا^(٤).

فتكرار قوانين الخطر وتشديد العقوبات يدلان - كما يقول الدكتور وافي - على شيوع الشيء المحظور وعجز أولياء الأمور عن القضاء عليه^(٥).

والظاهر أن الرومان فى قرون الجمهورية الأولى كانوا يقدمون كل سنة ذبائح بشرية وانقطعوا عن ذلك سنة ٦٥٧م لما أمر مجلس الأعيان بإبطائها.

(١) ص ٢٠٨.

(٢) الحضارة الرومانية ص ١٩٦.

(٣) دائرة معارف بطرس البستاني ج ٨ ص ٣٠٢.

(٤) المصدر السابق.

(٥) غرائب النظم ص ٨٣.

لكن ذكر في التواريخ ذبح رجلين للمعبود في أيام يوليوس قيصر فاستنتج بعضهم من ذلك أن الأمر بإبطال هذه الذبائح لم يكن مانعا إلا للذبائح الخصوصية^(١).

وجاء في دائرة معارف البستاني أنه بعد أن لزم أوغسطس أنطونيوس بالذهاب إلى بروجة أمر بأن يذبح على مذبح يوليوس قيصر أربعمئة من أعضاء مجلس الأعيان والفرسان المتخرجين للحكومة الثلاثية فخفض سويتون هذا العدد إلى ثلثمئة وطرح بومبيوس في البحر أفراسا ورجالا استرضاء للإله نبتون معبود البحار^(٢).

وقد انتشر في شمال أفريقيا الذي كان خاضعا لحكم الرومان مظهر خاص من مظاهر نظام التضحية بالآدميين وهو تقديم الأطفال الصغار ضحايا للإله ساتورن^(٣).

واستلزمت عبادة فيستا العائلية التي لم يكن مذبحها سوى الموقد المنزلي الذي لا تنطفئ ناره أن تلقى فيه القرابين في ساعات معينة فيندلع منه اللهب الراقص، ويقدم له رب العائلة قريبته حال زواجه منها وطفله حال ولادته^(٤).

(١) دائرة معارف البستاني ج ٨ ص ٣٠٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) غرائب النظم ص ٨٣.

(٤) روما وامبراطوريتها ص ٢٠٢.

الفصل السابع

القرايين البشرية عند العرب فى الجاهلية

يذهب كثير من العلماء والباحثين إلى أن العرب فى الجاهلية كانوا يمارسون تقديم القرايين البشرية شأنهم فى ذلك شأن كثير من الأمم الوثنية القديمة، وإن كانوا يختلفون عنهم فى أنهم قصرُوا هذا القربان فى الأعم الغالب على أولادهم بشكل عام وعلى بناتهم بوجه خاص.

ولعل هذا المذهب كان من منطلق ما عرف عن بعض العرب الجاهلين واشتهر وحكاه القرآن الكريم عنهم من قتل أولادهم ووآد بناتهم.

فما يتعلق بقتل أولادهم فإن نصوص القرآن الكريم صريحة فى أنهم كانوا يقتلونهم خشية الفقر والفاقة أو ما عبر عنه بالإملاق يقول الله تعالى فى سورة الأنعام ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾^(١).

ويقول سبحانه فى سورة الإسراء ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَتْ خَطَاً كَبِيرًا﴾^(٢).

وأما فيما يتعلق بوآد بناتهم فإن نصوص القرآن الكريم غير صريحة فى أن الدافع الذى حملهم على هذا الوآد كان هو الفقر والفاقة أو العار والمذلة.

(١) الأنعام: ١٥١.

(٢) الإسراء: ٣١.

يقول تعالى ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۚ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ ۚ أَمْرٌ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾^(١).

ومن ثم فإن للمفسرين أقوالاً مختلفة في بيان المراد بالأولاد المنهى عن قتلهم وهل ينطبق هذا القتل على الوأد أولاً ودورات أقوالهم حول أربعة اتجاهات:

الاتجاه الأول:

وأصحاب هذا الاتجاه يفسرون قتل الأولاد من إملاق وخشية إملاق بوأد البنات فقط وعلى ذلك يكون السبب الرئيسى والدافع الحقيقى للوأد إنها هو خشية الفقر والفاقة.

يقول القرطبى فى تفسير قوله تعالى "ولا تقتلوا أولادكم من إملاق" الإملاق هو الفقر أى لا تندوا - من الموءودة - بناتكم خشية العيلة فإنى رازقكم وإياهم^(٢).

وفى تفسير قوله تعالى "وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم" قال مجاهد وغيره "زينت لهم قتل البنات مخافة العيلة" وإن ذلك إشارة إلى الوأد وهو دفن البنت حية مخافة السباء والحاجة وعدم ما حرمن من النصرة^(٣).

وذكر الفخر الرازى أن المراد بهذا النهى عن قتل الأولاد النهى عن الوأد إذ كانوا يدفنون البنات أحياء بعضهم للغيرة وبعضهم خوف الفقر وهو السبب الغالب^(٤).

وفى تفسير قوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْذَوْهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾^(٥).

(١) النحل: ٥٩ - ٦٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ص ١٣٢.

(٣) المصدر السابق ج ٧ ص ٩١.

(٤) مفاتيح الغيب ج ١٣ ص ٢٣٢.

(٥) الأنعام: ١٣٧.

يقول إن أهل الجاهلية كانوا يدفنون بناتهم أحياء خوفا من الفقر أو من التزويج، ونقل عن مجاهد أن شركاءهم هم شياطينهم إذ أمرهم بأن يئدوا أولادهم خشية العيلة وسميت الشياطين شركاء لأنهم أطاعوهم في معصية الله تعالى^(١).

وأما الآلوسى فقد فسر قوله تعالى "ولا تقتلوا أولادكم" بالوآد (من إملاق) من أجل فقر أو من خشية كما في قوله سبحانه "خشية إملاق".

وذكر أن الخطاب في كل آية لصنف وليس خطابا واحدا فالمخاطب بقوله سبحانه (من إملاق) من ابتلى بالفقر والمخاطب بقوله تعالى (خشية إملاق) من لا فقر له ولكن يخشى وقوعه في المستقبل ولهذا قدم رزقهم في سورة الأنعام (نحن نرزقكم وإياهم) وقدم رزق أولادهم في مقام الخشية فقيل "نحن نرزقهم وإياكم"^(٢).

الاتجاه الثاني:

يرى أصحاب هذا الاتجاه أن المراد بقتل الأولاد المنهى عنه وأد البنات بجانب قتل البنين أيضا ويجعلون قتل البنات خشية العار وقتل البنين خشية الفقر.

يقول القرطبي "وقد كان منهم من يفعل ذلك بالإناث والذكور خشية الفقر كما هو ظاهر الآية"^(٣).

ويقول ابن كثير "إن الجاهليين كانوا يقتلون أولادهم كما سولت لهم الشياطين ذلك فكانوا يئدون البنات خشية العار وربما قتلوا بعض الذكور خشية الافتقار

(١) التفسير الكبير ج ١٣ ص ٢٠٥-٢٠٦.

(٢) روح المعاني ج ٨ ص ٥٤.

ويقول ابن كثير في هذا "قال في سورة الإسراء (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق أى لا تقتلوهم خوفا من الفقر في الآجل ولهذا قال هناك (نحن نرزقهم وإياكم) فبدأ برزقهم للاهتمام بهم أى لا تخافوا من فقركم بسبب رزقهم فهو على الله وأما في سورة الأنعام فلما كان الفقر حاصلا (من إملاق) أى من فقركم الحاصل قال (نحن نرزقكم وإياهم) لأنه الأهم (تفسير القرآن العظيم) ج ٢ ص ١٨٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ج ٧ ص ١٣٢.

ولهذا ورد في الصحيحين نم حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال قال رسول الله ﷺ: أى الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أى قال "أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك قلت ثم أى قال أن تزنى بجليلة جارك" ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾^(١).

وبناء على تفسير أصحاب هذين الاتجاهين يكون هناك ارتباط بين النهى عن الأولاد في القرآن الكريم "ولا تقتلوا أولادكم" وبين الوأد في قوله تعالى "وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم" فبناء على الرأى الأول اعتبر النهى عن قتل الأولاد هو النهى عن وأد البنات وعلى الرأى الثانى اعتبر الوأد ضمن قتل الأولاد حيث كانوا يقتلون البنين ويثدون البنات.

الاتجاه الثالث:

يفرق أصحاب هذا الاتجاه بين قتل الأولاد من إملاق أو خشية إملاق وبين وأد البنات في الجاهلية فيرون أن قتل الأولاد كان بدافع الفقر والفاقة وأن الوأد لم يكن بسبب ذلك وإنما كان من منطلق دينى أو بدافع دينى بحت.

يذكر كل من القرطبي والألوسى أن فريقا من مشركى العرب كانوا يثدون البنات الصغار بأن يدفنونهن أحياء انطلاقا من اعتقادهم أن الملائكة بنات الله سبحانه فكانوا يقولون ألحقوا البنات بالبنات أو ألحقوا البنات بالله تعالى فهو أحق بها^(٢).

ويرى الدكتور على عبد الواحد وافي أن العرب كانوا فى قتل أولادهم ينقسمون إلى طائفتين:

كانت طائفة مع عشائر العرب تلجأ إلى قتل أولادها تحت تأثير الفقر ورغبة في

(١) الفرقان: ٦٨ تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ١٨٨.

(٢) تفسير القرطبي ج ٧ ص ٩٦ - ٩٧ روح المعاني ج ٨ ص ٣٢.

التخلص من تكاليف تربيتهم وهذه الطائفة ما كانت تفرق بين ذكور الأولاد وإناثهم.

وكانت طائفة أخرى من العشائر العربية تؤد البنات بدافع ديني بحث وذلك أنهم كانوا يعتقدون أن البنات رجس من خلق الشيطان أو من خلق إله غير آلهتهم وأن مخلوقا هذا شأنه ينبغي التخلص منه^(١).

وأصل عقائدهم هذه أنهم كانوا يقسمون ما تخرجه الأرض وما تنتجه الأنعام قسمين: قسم ينسبونه لآلهتهم ويعدونه من خلقه، وهو قسم طاهر زكى، وقسم ينسبونه لله تعالى ويعدونه من خلقه، وهو قسم كانوا يعتقدون أن مدنس بالرجس فكانوا يجرمونه على أنفسهم أو يرون أن واجبه الديني يقتضيهم التخلص منه أو تقديمه قربانا لآلهتهم.

وما زين لهم اعتقاده بصدد نتاج الحرث والأنعام زين لهم اعتقاد مثله بصدد نتاج الإنسان فقسموا ما يولد للإنسان قسمين: قسم طاهر زكى من خلق آلهتهم وهو جنس الذكور، وقسم من خلق الله وهو نوع الإناث وهو قسم مدنس بالرجس كانوا يجرمون بقاءه ويرون أن واجبه الديني يقتضيهم التخلص منه^(٢).

ومن أجل ذلك كانوا يتقون ذبحهن ويؤثرون وأدهم عقب ولادتهن مباشرة حتى لا تنتشر دماؤهن فتنتشر معها ما تحمله من نجس ورجس.

بل كان بعضهم يبالغ في هذا التخرج فيئدهن بعيدا عن المنازل.

ولم يقف أمر اعتقادهم هذا عند حدود العالم الطبيعي، عالم النبات والحيوان والإنسان بل جاوزه إلى عالم السماء فكانوا ينسبون لله تعالى من هذا العالم كله ما يعتقدون أنه من نوع الإناث، ومن ذلك نسبوا إليه الملائكة لاعتقادهم أنهم من هذا النوع^(٣).

(١) راجع تفصيل ذلك في كتابه "بحوث في الإسلام والاجتماع" ص ٢٣٩ - ٢٤٢.

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٢.

(٣) راجع المصدر السابق ص ٢٤٢ - ٢٤٥.

ولا يستبعد الدكتور جواد على ما ذكره أهل الأخبار من وجود دافع دينى حمل الجاهليين على قتل الأولاد وعلى الوأد، بأن يكون ذلك من بقايا الشعائر الدينية التى كانت فى القديم.

ويرى أن تقديم الضحايا البشرية إلى الآلهة لخير المجتمع وسلامته، وإرضاء الآلهة هى شعيرة من الشعائر الدينية المعروفة، فليس بمستبعد إذن أن يكون الوأد والقتل من بقايا تلك الشعائر، والغريب فى الوأد أنه يكون بالدفن، بينما العادة فى الضحايا التى تقدم إلى الآلهة أن يكون بالذبح أو بالطعن وبأمثال ذلك كى يسيل الدم من الضحية فالدم هو الغاية من كل ضحية، لأنه الجزء المهم من الضحايا المخصص بالآلهة.

وعموما فإن الوأد هو أيضا نوع من القتل، وذبح الأولاد وتقديمهم قربان إلى الآلهة عبادة معروفة عند أمم أخرى كانت تمارسها لترضى بذلك الآلهة وتحجب مطالبها^(١).

وإذا كان العلماء والباحثون قد اختلفوا فى تعليل وأد البنات وتباينت آرائهم وأقوالهم فى تحديد العوامل التى أدت إليه وكانت سببا من أسبابه المباشرة. فإن هناك من يرى أن هناك عدة عوامل مجتمعة ساعدت على حدوث هذا الوأد وذلك القتل.

يقول جواد على "فالفاقة والحمية واعتقاد بعض منهم أن الملائكة بنات الله، فيجب إلحاق البنات بالبنات هى عوامل دفعت بالعرب إلى الوأد، فهى بين عامل اقتصادى نص عليه فى القرآن الكريم، وعامل اجتماعى هو الحمية، وخشية لحوق العار بالإنسان من السبى والغارات وعامل دينى يرجع إلى رأى فى دين^(٢).

ويرى الدكتور محمد بيومى مهران أن أسبابا كثيرة تجمعت وكانت سببا فى أن يئد

(١) راجع الفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٥ ص ٩٧ - ٩٨.

(٢) المصدر السابق ج ٥ ص ٩٣ - ٩٤.

بعض العرب بناتهم، صحيح أن العوامل الاقتصادية إنما كانت أقوى العوامل، ولكن صحيح كذلك أن الحماية وخوف الآباء من وقوع بناتهم سبايا في قبضة الغالبيين، فضلا عن العامل الديني، والخوف من مستقبل مظلم لتلك الفتاة المشوهة، بأن تعيش في بيت أبيها من غير زوج، أو أن تتزوج من غير الأكفاء، إنما كانت عوامل أخرى، دفعت إلى وأد البنات^(١).

وهكذا اجتمعت العوامل الاقتصادية والاجتماعية والدينية بعضها إلى جانب بعض في أن تجعل بعض القوم يرتكبون تلك الجريمة الوحشية في حق أقرب الناس إليهم وأولاهم بالرحمة والعناية، فضلا عن تنشئتهم تنشئة صالحة^(٢).

وعلى أى حال فإن ما يعيننا في هذا البحث أن نقرر وجود دافع ديني حمل بعض الجاهليين من العرب على قتل أولادهم ووأد بناتهم وأن ذلك كان نوعا من القرابين البشرية التي مارسوها ضمن عباداتهم الجاهلية.

وما يؤكد ذلك أن الجاهليين كانوا يقدمون القرابين البشرية لألهتهم وأصنامهم التي كانوا يعبدونها.

يذكر (موزفيروس) أن أهل (دومة) كانوا يذبحون في كل سنة إنسانا عند قدم الصنم تقربا إليه وذكر (نيلوس) أن من عادة بعض القبائل تقديم أجمل من يقع أسيرا في أيديهم إلى (الزهرة) ضحية لها تذبح وقت طلوعها وقد وقع ابنه (تيودولس) أسيرا حوالى سنة ٤٠٠م في أيدي الأعراب، وهى ليذبح قربانا إلى الزهرة غير أن أحوالا وقعت أفادت عليهم الوقت المخصص لتقديم الذبائح، أنقذته من الذبح فاكتمى أسروه ببيعه في أسواق الرقيق بـ (ألوسة) فاستقر هناك إلى أن صار أسقفا على المدينة.

(١) مركز المرأة في الحضارة العربية القديمة ص ٢٣٩ - ٢٤٠ بحث منشور بمجلة كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية العدد الأول ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.

(٢) المصدر السابق.

وذكر أيضا أن الملك (المنذر) ملك الحيرة قدم أحد أبناء الحارث الذى وقع أسيرا فى يديه ونحو من أربع مائة راهبة قرايين إلى العزى^(١).

الاتجاه الرابع:

يربط أصحاب هذا الاتجاه بين قوله تعالى "وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم، وبين حادث نذر عبد المطلب جد النبى ﷺ الذى انتهى بافتداء عبد الله والد الرسول ﷺ.

يذكر كل من القرطبى والرازى والألوسى فى تفسير هذه الآية رأى من يقول إن الرجل كان فى الجاهلية يحلف بالله لئن ولد له كذا وكذا غلاما لينحرن أحدهم، كما فعله عبد المطلب حين نذر ذبح ولده عبد الله فى قصته المشهورة وإليها أشار بقوله أنا ابن الذبيحين^(٢).

ونقله الرازى عن الكلبي فذكر أنه كان لأهتهم سدنة وخدام وهم الذين كانوا يزبنون للكفار قتل أولادهم، وفسر الشركاء بالسدنة وسموا شركاء لأنهم أطاعوهم فى معصية الله تعالى^(٣).

وقصة نذر عبد المطلب وردت فى كتب السيرة والتاريخ.

يذكر ابن إسحاق فيما رواه كل من الطبرى وابن هشام وابن الأثير وابن كثير وغيرهم أن عبد المطلب بن هشام كان قد نذر حين لقى من قريش ما لقى عند حفر زمزم، لئن ولد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعوه ليدبحن أحدهم لله عند الكعبة.

فلما تكامل بنوه عشرة وعرف أنهم سيمنعونه جمعهم ثم أخبرهم بنذره الذى نذر

(١) راجع د/ جواد على: الفصل ج ٦ ص ١٩٨ - ١٩٩.

وللأمانة فإنه يحتاط فى إيراد هذه الروايات.

(٢) تفسير القرطبى ج ٧ ص ٩١ التفسير الكبير ج ١٣ ص ٢٠٦.

روح المعانى ج ٨ ص ٣٢.

(٣) التفسير الكبير ج ١٣ ص ٢٠٦.

ودعاهم إلى الوفاء لله عز وجل بذلك فأطاعوه وقالوا كيف نصنع؟ قال: ليأخذ كل رجل منكم قِدْحًا ثم ليكتب فيه اسمه ثم اتنوني به ففعلوا ثم أتوه فدخل على هيكَل في جوف الكعبة، وكانت هبل أعظم أصنام قريش بمكة وكانت على بئر في جوف الكعبة وكانت تلك البئر هي التي يجمع فيها ما يهدى للكعبة.

وكان عند هبل قداح سبعة وهي الأزلام التي يتحاكمون إليها إذا أعضل أمر من عقل أو نسب أو أمر من الأمور جاءوه فاستقسموه بها فما أمرتهم به أو نهتهم عنه امتثلوه.

والمقصود أن عبد المطلب لما جاء يستقسم بالقداح عند هبل خرج القدح على ابنه عبد الله وكان أصغر ولده وأحبهم إليه فأخذ عبد المطلب بيد ابنه عبد الله وأخذ الشفرة، ثم أقبل إلى أساف ونائلة - وهما وثنا قريش اللذان تنحرا عندهما ذبائحهما - ليزبحه فقامت إليه قريش من أندية فقالوا: ماذا تريد يا عبد المطلب قال: أذبحه، فقال له قريش وبنوه: والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه، لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه فما بقاء الناس على هذا^(١).

ثم أشارت قريش على عبد المطلب أن يذهب إلى الحجاز، ودلوه على عرافة هناك وقالوا له إن أمرتك بذبحة فاذبحه، وإن أمرتك بأمر لك وله فيه مخرج قبلته، فانطلقوا حتى أتوا المدينة فوجدوا العرافة فسألوها بعد أن قص عليها عبد المطلب خبره وخبر ابنه فسألته: كم الدية فيكم؟ قالوا عشر من الإبل قالت فارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم وقربوا عشرا من الإبل ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم، وإن خرجت على الإبل فانحروا عنه فقد رضى ربكم، ونجا صاحبكم، فخرجوا حتى قدموا مكة فلما أجمعوا على ذلك الأمر قام عبد المطلب يدعو الله ثم قربوا عبد الله وعشرا من الإبل

(١) ينقل ابن كثير عن يونس بن بكير عن ابن إسحاق أن العباس هو الذي اجتذب عبد الله من تحت رجل أبيه حين وضعها عليه ليزبحه فيقال إنه شج وجهه شجاً لم يزل في وجهه إلى أن مات (البداية والنهاية ج ٢ ص ١٣١).

ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله فزادوا عشرا فلم يزالوا يزيدون عشرا عشرا ويخرج القدح على عبد الله حتى بلغت الإبل مائة، ثم ضربوا فخرج القدح على الإبل فقالت عند ذلك قريش لعبد المطلب وهو قائم عند هبل يدعو الله قد انتهى رضى ربك يا عبد المطلب^(١).

وإذا كان هذا قد حدث في الجاهلية فإن هناك حادثا يكاد يكون مشابها له قد وقع في الإسلام، وهو أن امرأة نذرت أن تنحر ابنها عند الكعبة، وكان للفقهاء من الصحابة والتابعين فتاوى في هذه المسألة وفي أمثالها.

وهذا يجعلنا ننتهز الفرصة لنبين موقف فقهاء المسلمين من القرابين البشرية أو بمعنى أدق موقفهم ممن نذر نحر نفسه أو ابنه تقربا إلى الله رب العالمين، وأن نبين أيضا تحقيق علماء المسلمين في أمر الله سبحانه لخليله إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام.

(١) راجع تفاصيل هذه القصة في تاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٤٠ - ٢٤٣ سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٥١ - ١٥٥ البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٣٠ - ٢٣١ الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٢ ص ٣ - ٤. - ١٢٥ -

الفصل الثامن

موقف الإسلام من نذر وتقديم القرابين البشرية

والتحقيق في رؤيا الخليل بذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام

في هذا الفصل سنقوم بتوضيح موقف الإسلام من تقديم القرابين البشرية والمتمثل في فتاوى الفقهاء من الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم.

ونبين التحقيق في ما رآه الخليل إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام ومدى علاقة ذلك بعادة القرابين البشرية.

أما فيما يتعلق بالنقطة الأولى فإن بداية النظر فيها كانت حول ذلك الحادث المشابه لحادث نذر عبد المطلب حيث نذرت امرأة أن تنحر ابنها عند الكعبة فجاءت لتعرض هذا الحادث الأول من نوعه في الإسلام على علماء الصحابة وفقهائهم ومنهم الإمامان ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم جميعاً.

يذكر الطبري عن قبيصة بن ذؤيب أنه أخبره أن امرأة نذرت أن تنحر ابنها عن الكعبة في أمر إن فعلته: ففعلت ذلك الأمر، فقدمت المدينة لتستفتي عن نذرها فجاءت عبد الله بن عمر:

فقال لها عبد الله بن عمر: لا أعلم الله أمر في النذر إلا الوفاء به فقالت المرأة أفأنحر ابني؟ فقال ابن عمر: قد نهاكم الله أن تقتلوا أنفسكم، فلم يزدها عبد الله بن عمر على ذلك.

فجاءت عبد الله بن عباس فاستفتته، فقال أمر الله بوفاء النذر [والنذر دين]

ونهاكم أن تقتلوا أنفسكم، وقد كان عبد المطلب بن هاشم نذر إن توافى له عشرة رهط أن ينحر أحدهم، فلما توافى له عشرة أقرع بينهم أيهم ينحر؟ فطارت القرعة على عبد الله بن عبد المطلب، وكان أحب الناس إلى عبد المطلب، فقال عبد المطلب: اللهم هو أو مائة من الإبل فأقرع بينه وبين الإبل فطارت القرعة على المائة من الإبل - فقال ابن عباس للمرأة: فأرى أن تنحرى مائة من الإبل مكان ابنك، فبلغ الحديث مروان وهو أمير المدينة فقال: ما أرى ابن عمر ولا ابن عباس أصابا الفتيا: إنه لا نذر في معصية الله، استغفرى الله وتوبى إلى الله، وتصدقى واعملى ما استطعت من الخير، فأما أن تنحرى ابنك فقد نهاك الله عن ذلك، فسر الناس بذلك وأعجبهم قول مروان، ورأوا أنه قد أصاب الفتيا، فلم يزالوا يفتون بالألا نذر في معصية الله^(١).

ومن حسن الحظ أنه قد تفرع عن هذا الحادث أو عن ذلك السؤال صورة فقهية تعرض لها الفقهاء وناقشوا جزئياتها ونستطيع من خلالها أن نتعرف على موقف الإسلام من قضية القرابين البشرية:

فإذا كان الطبرى قد أورد عن ابن عباس هذه الفتوى فإن هناك روايات متعددة وردت عنه في كتب الفقه.

يقول ابن حزم: "وأما من نذر نحر نفسه أو ابنه فروينا من طريق عبد الرزاق عن ابن جريح أخبرنى يحيى بن سعيد الأنصارى قال: سمعت القاسم بن محمد بن أبى بكر يقول: سئل ابن عباس عمن نذر أن ينحر ابنه؟ فقال: لا ينحر ابنه وليكفر عن يمينه^(٢) فقيل لابن عباس: كيف تكون فى طاعة الشيطان كفارة فقال ابن عباس: الذين يظاهرون.... ثم جعل فيه من الكفارة ما رأيت"^(٣).

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٢٣٩ - ٢٤٠.

(٢) راجع أيضا القرطبى فى الجامع لأحكام القرآن ج ١٥ ص ١١.

(٣) المحلى ج ٨ ص ١٥ تحقيق أحمد شاكر مكتبة دار التراث - القاهرة. ورد فى الموطأ للإمام مالك عن القاسم بن محمد أنه سمعه يقول: أتت امرأة إلى عبد الله بن عباس، فقالت: إني نذرت أن أنحر ابني، فقال ابن عباس: لا تنحرى ابنك، وكفرى عن يمينك، فقال شيخ عند ابن عباس: وكيف يكون فى هذا كفارة؟ فقال ابن عباس: إن الله تعالى قال - والذين يظاهرون منكم من نسائكم - ثم جعل فيه من الكفارة ما قد رأيت (الموطأ ص ٢٩٤ - طبعة دار الشعب).

وذكر القرطبي أن ابن عباس قد استدل بقوله تعالى "وفديناه بذبح عظيم" على من نذر نحر ابنه أو ذبحه أنه يفديه به بكبش كما فدى به إبراهيم ابنه^(١).

فقد روى عنه من طريق ابن جريج عن عطاء قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال له: نذرت لأنحرن نفسي فقال ابن عباس: لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة وفديناه بذبح عظيم فأمره بكبش قال عطاء: يذبح الكبش بمكة قال ابن جريج: فقلت لعطاء: نذر لينحرن فرسه أو بغلته فقال: جزور أو بقرة، فقلت له: أمره ابن عباس بكبش في نفسه وتقول في الدابة جزور فأبى عطاء إلا ذلك^(٢).

قال أبو محمد: وليس في هذه الآية أيضا حجة لابن عباس لأن إبراهيم عليه السلام لم ينذر ذبح ولده لكن أمره الله تعالى بذبحه فكان فرضا عليه أن يذبحه وكان نذر الناذر نحر ولده أو نفسه معصية من كبار المعاصي ولا يجوز أن تشبه الكبائر بالطاعات^(٣).

وأیضا فإننا لا ندرى ما كان ذلك الذبح^(٤) الذى فدى به إسماعيل عليه السلام فبطل هذا التشبيه^(٥).

وأورد القرطبي عن ابن عباس رواية أخرى، يذكر فيها أنه يرى أن ينحر مائة من الإبل كما فدى به عبد المطلب ابنه^(٦).

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ١١١.

(٢) المحلى ج ٨ ص ١٥ - ١٦.

(٣) المصدر السابق ص ١٦.

(٤) اختلف العلماء في ذلك الذبح فقيل إنه الكبش الذى قر به هابيل فتقبل منه وبقي يرعى في الجنة حتى فدى الله تعالى به إسماعيل وروى هذا عن ابن عباس رضى الله عنهما وقال آخرون أرسل الله كبشا من الجنة قد رعى فيها أربعين خريفاً، وقال الإمام أحمد إن عثمان بن طلحة أخبر أن رسول الله ﷺ قال له "إنى كنت رأيت قرنى الكبش حين دخلت فنسيت أن أمرك أن تخمرهما فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلى، وقال سفيان: لم يزل قرنا الكبش في البيت حتى احترق البيت فاحترقا (راجع تفسير الرازى ج ٢٦ ص ١٥٨ تفسير ابن كثير ج ٤ ص ١٦ - ١٧ روح المعاني ج ٢٣ ص ١٣١ - ١٣٢).

(٥) المحلى ج ٨ ص ١٦.

(٦) التفسير ج ١٥ ص ١١١.

وروى ابن حزم هذا الرأي على أنه قول ثالث لابن عباس من طريق عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس أنه قال في رجل نذر أن ينحر نفسه قال: ليهدي مائة ناقة^(١).

ومن طريق شعبة عن عمرو بن مرة قال: سمعت سالم بن أبي الجعد قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال له: إني كنت أسيرا في أرض العدو فنذرت إن نجاني الله أن أفعل كذا وأن أنحر نفسي وإني قد فعلت ذلك قال وفي عنقه قد^(٢).

فأقبل ابن عباس على امرأة سألته وغفل عن الرجل فانطلق لينحر نفسه، فسأل ابن عباس عنه؟ فقليل له: ذهب لينحر نفسه فقال: على بالرجل فجاء فقال: لما أعرضت عني انطلقت أنحر نفسي فقال له ابن عباس: لو فعلت مازلت في نار جهنم، انظر ديتك فاجعلها في بدن فاهدها في كل عام شيئا ولولا أنك شددت على نفسك لرجوتك أن يجزيك كبش وهذه آثار في غاية الصحة^(٣).

ومن طريق قتادة عن ابن عباس أنه أفتى رجلا نذر أن ينحر نفسه فقال له: أتجد مائة بدنة؟ قال: نعم قال: فانحرها فلما ولى الرجل قال ابن عباس: أما لو أمرته بكبش لأجزأ عنه.

ومن طريق ابن جريج أخبرني عمرو بن دينار أن عكرمة أخبره أن رجلا أتى إلى ابن عباس فقال له: لقد أذنبت ذنبا لأن أمرتني لأنحرن الساعة نفسي والله لا أخبرك فقال له ابن عباس بلى لعل أن أخبرك بكفارة قال: فأبى فأمره بمائة ناقة وهذا أيضا إسناد صحيح^(٤).

ويعلق ابن حزم على أقوال ابن عباس بأنها أقوال صحاح وليس بعضها أولى من

(١) المحلى ص ١٦.

(٢) القد هو السَّير الذي يقدم من الجلد ويخصف به النعال - لسان العرب - ج ٥ ص ٣٥٤٣ دار المعارف.

(٣) المحلى ص ١٦.

(٤) المحلى ص ١٦.

بعض ولا حجة في أحد غير رسول الله ﷺ، وابن عباس وغيره لم يعصم من الخطأ، ومن قلدتهم فقد خالف أمر الله تعالى في ألا نتبع إلا ما أنزل إلينا، ولكل واحد من الصحابة رضى الله عنهم فضائل ومشاهد تعفو عن كل تقصير وليس ذلك لغيرهم^(١).

وقال أبو حنيفة: من نذر نحر ولده أو نحر نفسه أو نحر غلامه أو نحر والده أو نحر أجنبي أو إهداء ولده أو إهداء والده فلا شيء عليه في كل ذلك إلا في ولده خاصة فيلزمه فيه هدى شاة حيث يرى أنها كلمة يلزمه به في ولده ذبح شاة ولا يلزمه في غير ولده شيء^(٢).

ووافقه على كل ذلك محمد بن الحسن إلا أنه قال: وعليه في الحلف بنحر عبده مثل الذى عليه في الحلف بنحر ولده إذا حنث أى يلزمه في ذلك شاة أيضا^(٣).

واستدل أبو حنيفة بقصة الذبيح وما ورد فيها من الفداء حيث يرى أن نذر الولد جعل في الشرع كنذر ذبح شاة بدليل أن الله تعالى أمر إبراهيم بذبح ولده وكان أمرا بذبح شاة وشرع من قبلنا شرع لنا ما لم يثبت نسخه، ودليل أنه أمر بذبح شاة أن الله لا يأمر بالفحشاء ولا بالمعاصي وذبح الولد من كبائر المعاصي قال الله تعالى ﴿وَلَا

(١) المصدر السابق ص ١٧ .

(٢) المصدر السابق تفسير القرطبي ج ١٥ ص ١١، راجع المبسوط للسرخسي ج ٨ ص ١٤١ - ١٤٢، نشر دار المعرفة - بيروت ١٩٧٨ م.

(٣) المصدر السابق، جاء في المبسوط للسرخسي أن الرجل إذا نذر بذبح عبده يلزمه ذبح شاة حسب قول محمد لأنه أخذ فيه بالاستحسان، ولأن العبد كسبه وملكه فإذا صح إضافة النذر إلى الولد لكونه كسباً له وإن لم يكن ملكاً فلا يصح إضافته إلى كسبه وهو ملكه أولى.

أما أبو حنيفة فقد أخذ بالقياس فقال لا يلزمه شيء لأن جعل الشاة فداء عن الولد لكرامة الولد والعبد في استحقاق الكرامة ليس بنظير الولد، وإن نذر ذبح ابن ابنه ففيه روايتان عنه: رواية لا يلزمه شيء وهو الأظهر لأن ابن الابن ليس بنظير الابن من كل وجه ورواية أخرى قال يلزمه لأنه مضاف إليه بالبنوة وهو في معنى الكرامة كالابن في حقه.

راجع تفاصيل ذلك وغيره ج ٨ ص ١٤٢ .

تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ^(١) وقال النبي ﷺ "أكبر الكبائر أن تجعل لله ندا وهو خلقك" قيل ثم أى قال أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك^(٢).

وقال القاضي أبو بكر ابن العربي: يلزمه شاة كما قال أبو حنيفة، لأن الله تعالى جعل ذبح الولد عبارة عن ذبح الشاة شرعا، فألزم الله إبراهيم ذبح الولد. وأخرجه عنه بذبح الشاة.

وكذلك إذا نذر العبد ذبح ولده يلزمه أن يذبح شاة، لأن الله تعالى قال: "ملة أبيكم إبراهيم" والإيمان التزام أصلى، والنذر التزام فرعى، فيجب أن يكون عليه محمولا^(٣).

وورد عن الإمام مالك أكثر من رأى حيث قال: من حلف فقال: أنا أنحر ابني إن فعلت كذا فحنث فعليه كفارة يمين، ومرة قال: إن كان نوى بذلك الهدى فعليه هدى وإن كان لم ينو هديا فلا شىء عليه لا هدى ولا كفارة، ومرة قال: إن نذر ذلك عند مقام إبراهيم فعليه هدى وإن لم يقل عند مقام إبراهيم فكفارة يمين^(٤).

وذكر ابن عبد الحكم عن مالك فيمن قال: أنا أنحر ولدى عند مقام إبراهيم في يمين ثم حنث فعليه هدى، قال: ومن نذر أن ينحر ابنه ولم يقل عند مقام إبراهيم ولا أراد فلا شىء عليه^(٥).

وفيما يتعلق بمذهب الإمام أحمد بن حنبل فقد ذكر ابن قدامة أنه قد اختلفت الرواية فيمن حلف بنحر ولده نحو أن يقول إن فعلت كذا فله على أن أذبح ولدى أو يقول ولدى نحير إن فعلت ذلك أو نذر ذبح ولده مطلقا غير معلق بشرط فعن

(١) الإسرائ: ٣١.

(٢) المغنى لابن قدامة ج ١١ ص ٢١٦ دار الريان للتراث - المغنى مع الشرح الكبير.

(٣) أحكام القرآن ج ٤ ص ١٦١٩ - ١٦٢٠ تحقيق على البجاوى - نشر دار الجليل - بيروت ١٩٨٧ م تفسير القرطبي ج ١٥ ص ١١١ - ١١٢.

(٤) المحلى ج ٨ ص ١٧ - ١٨.

(٥) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ١١١.

أحمد عليه كفارة يمين وهذا قياس المذهب لأن هذا نذر معصية أو نذر لجاح وكلاهما يوجب الكفارة واستدل بقول ابن عباس حينما قال لامرأة نذرت أن تذبح ابنها لا تنحري ابنك وكفرى عن يمينك^(١).

والرواية الثانية: كفارته ذبح كبش ويطعمه المساكين^(٢).

ثم يقول ابن قدامة: ولنا قوله عليه السلام "لا نذر في معصية، وكفارته كفارة يمين" ولأن النذر حكمه حكم اليمين بدليل قوله عليه السلام "النذر حلف وكفارته كفارة يمين" فيكون بمنزلة من حلف ليذبحن ولده^(٣).

وردا على من قال: إن النذر لذبح الولد كناية عن ذبح الكبش قال ابن قدامة إن هذا لا يصح لأن إبراهيم لو كان مأمورا بذبح كبش لم يكن الكبش فداء ولا كان مصدقا للرؤيا قبل ذبح الكبش وإنما أمر بذبح ابنه ابتلاء، ثم فدى بالكبش.

وهذا أمر مختص بإبراهيم عليه السلام لا يتعداه إلى غيره لحكمة علمها الله تعالى فيه، ثم لو كان إبراهيم مأمورا بذبح كبش، فقد ورد شرعا بخلافه فإن نذر ذبح الابن ليس بقربة في شرعنا ولا مباح بل هو معصية فتكون كفارته ككفارة سائر نذور المعاصي^(٤).

ثم عرض ابن قدامة لما قاله أحمد في امرأة نذرت نحر ولدها ولها ثلاثة أولاد من أن تذبح عن كل واحد كبشا وتكفر يمينها^(٥) وهذا على قوله أن كفارة نذر ذبح الولد ذبح كبش، جعل عن كل واحد كبشا لأن لفظ الواحد إذا أضيف اقتضى التعميم فكان عن كل واحد كبش فإن عنت بنذرهما واحدا فإنما عليها كبش واحد

(١) المغنى ج ١ ص ٢١٥.

(٢) المصدر السابق ص ٢١٦.

(٣) المصدر السابق ص ٢١٦.

(٤) المصدر السابق ص ٢١٦-٢١٧.

(٥) يقول ابن قدامة: فأما قول أحمد وتكفر يمينها فيحتمل أنه أراد ذبح الكبش كفارة يمينها ويحتمل أنه كان مع نذرهما يمين، وأما على الرواية الأخرى تجزئها كفارة يمين على ما سبق (المصدر السابق ص ٢١٨).

بدليل أن إبراهيم عليه السلام لما أمر بذبح ابنه الواحد فدى بكبش واحد، ولم يفد غير من أن بذبحه من أولاده وكذا ههنا، وعبد المطلب لما نذر ذبح ابن من بنيه إن بلغوا عشرة لم يفد منهم إلا واحدا، وسواء نذرته معينا أو عنت واحدا غير معين^(١).

وقال كل من أبي يوسف والشافعي ومسروق وأبي سليمان: لا شيء عليه في كل ذلك إلا الاستغفار فقط^(٢).

وحينما قال الشافعي ليس هذا بشيء ولا يجب به شيء فإنه علل ذلك بأنه نذر معصية لا يجب الوفاء به ولا يجوز ولا تجب به كفارة لقول النبي ﷺ "لا نذر في معصية ولا فيما لا يملك ابن آدم" وقوله عليه السلام "ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه"^(٣).

وقد اختار الإمام ابن حزم هذا الرأي وقال: هذا هو الحق لقول الله تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾^(٤)، وقال تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾^(٥)، وقال رسول الله ﷺ "من نذر أن يعصى الله فلا يعصه" ولم يأمره في ذلك بكفارة ولا هدى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾^(٦).

ثم ذكر رواية ابن جريج قال: سمعت سليمان بن موسى يحدث عطاء أن رجلا أتى إلى ابن عمر فقال له: نذرت لأنحرن نفسي فقال له ابن عمر: أوف. ما نذرت فقال له الرجل، أفأقتل نفسي قال له إذا تدخل النار قال له: ألبست على قال: أنت ألبست على نفسك^(٧).

(١) المصدر السابق ص ٢١٨.

(٢) المحلى ج ٨ ص ١٨ تفسير القرطبي ج ٥ ص ١١١.

(٣) المغنى ج ١١ ص ٢١٦، والحديثان وردا في الصحيحين وغيرهما من كتب السنة.

(٤) النساء: ٢٩.

(٥) الأنعام: ١٥١، الإسراء: ٣٣.

(٦) مريم: ٦٤.

(٧) المحلى ج ٨ ص ١٨.

وهكذا يتبين لنا من خلال هذا البحث الفقهي العميق، والذي استقصى فيه علماءنا وفقهاؤنا الأجلاء هذه المسألة استقصاء تاماً، ودرسوها من جميع جوانبها تبين لنا أن هناك إجماعاً منهم على أن الشخص لو نذر أن ينحر نفسه أو ابنه أو غيره إنما يعد هذا النذر معصية تغضب الله وتستوجب عقابه وتحتاج إلى الاستغفار والتكفير عن هذا الذنب العظيم، رغم اختلافهم فيما يجب عليه بعد هذا النذر.

ولا يعنينا هذا الاختلاف كثيراً في مقامنا هنا وإن كنت أميل إلى رأى الإمام الشافعى رضى الله عنه ومن قال بقوله والذي رجحه الإمام ابن حزم واختاره على غيره، وفضله الألوسى على بقية الآراء^(١)، بجانب ما صاحب هذا الرأى من استدلال قوى يعد أقرب إلى روح الإسلام وأكثر دلالة على منهجه.

وإنما الذى يعنينا بحثه هنا فى المقام الأول أن الفقهاء حينما يجمعون على أن هذا النوع من النذر إنما يعد معصية فإنهم بذلك يقدمون لنا حكماً صريحاً وقاطعاً فى تحريم مجرد نذر الإنسان نحر نفسه أو ابنه فضلاً عن حرمة قيامه بتنفيذ ذلك النذر، أو قيامه بقتل نفسه بدون نذر.

وهذا الحكم فيما أعتقد لا جدال فيه ولا شك وإنما هو معلوم من الدين بالضرورة.

غلظ تحريم قتل الإنسان لنفسه:

يقول الله تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۖ﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٢﴾.

اتفق المفسرون على أن هذا نهى عن أن يقتل بعضهم بعضاً وإنما قال (أنفسكم)

(١) يذكر الألوسى أن الإنصاف يقتضى أن نقول إن مدرك الشافعى وأبى يوسف عليهما الرحمة أظهر وأقوى من مدرك الإمام الأعظم رضى الله عنه فى هذه المسألة روح المعانى ج ٢٣ ص ١٣٨.

(٢) النساء: ٢٩ - ٣٠.

لقوله عليه السلام "المؤمنون كنفس واحدة" ولأن العرب يقولون: قتلنا ورب الكعبة إذا قتل بعضهم لأن قتل بعضهم يجرى مجرى قتلهم^(١).

يقول أبو جعفر الطبري يعنى بذلك جل ثناؤه "ولا تقتلوا أنفسكم، ولا يقتل بعضكم بعضا، وأنتم أهل ملة واحدة، ودعوة واحدة، ودين واحد، فجعل جل ثناؤه أهل الإسلام كلهم بعضهم من بعض، وجعل القاتل منهم قتيلا في قتله إياه منهم بمنزلة قتله نفسه، إذ كان القاتل والمقتول أهل يد واحدة على من خالف ملتهم"^(٢).

ويذكر الشيخ رشيد رضا أن المتبادر من قوله تعالى "ولا تقتلوا أنفسكم" أن المراد لا يقتل بعضكم بعضا، واختير هذا التعبير للإشعار بتعاون الأمة وتكافلها ووحدتها رغم أن ظاهر هذه الجملة وحدها يفيد أن النهي إنما هو عن قتل الإنسان لنفسه وهو الانتحار^(٣).

ولذلك اختلف المفسرون في أن هذا الخطاب هل هو نهى لهم عن قتلهم أنفسهم؟

فأنكره بعضهم وقال: إن المؤمن مع إيمانه لا يجوز أن ينهى عن قتل نفسه، لأنه ملجأ إلى أن لا يقتل نفسه، وذلك لأن الصارف عنه في الدنيا قائم، وهو الألم الشديد والدم العظيم.

والصارف عنه أيضا في الآخرة قائم، وهو استحقاق العذاب العظيم، وإذا كان الصارف خالصا امتنع منه أن يفعل ذلك، وإذا كان كذلك لم يكن للنهي عنه فائدة، وإنما يمكن أن يذكر هذا النهي فيمن يعتقد في قتل نفسه ما يعتقد أهل الهند، وذلك لا يتأتى من المؤمن^(٤).

(١) راجع تفسير الفخر الرازي ج ١٠ ص ٧٢ تفسير الطبري ج ٨ ص ٢٢٩.

(٢) تفسير الطبري ج ٨ ص ٢٢٩.

(٣) تفسير المنار ج ٥ ص ٣٦.

(٤) راجع تفسير الرازي ج ١٠ ص ٧٢ القاضي عبد الجبار: تنزيه القرآن عن المطاعن ص ٩٣ دار النهضة الحديثة - بيروت متشابه القرآن ص ١٨٢ - ١٨٣ تحقيق د/ عدنان محمد زرزور - دار التراث - القاهرة.

وقد سبق أن تحدثنا عن معتقدات الهنود في قتل أنفسهم وإقدامهم على الانتحار المقدس.

ويذكر الشيخ رشيد رضا أن من نظر في مجموع الآيات الواردة في هذا المعنى وراعى دلالة النظم والأسلوب يجزم بأن المراد بقتل الناس أنفسهم هو قتل بعضهم البعض، وأن النكتة في التعبير هي ما تقدم بيانه من وحدة الأمة حتى كأن كل فرد من أفرادها هو عين الآخر، وجنائته عليه جناية على نفسه من جهة، وجناية على جميع الأفراد من جهة أخرى.

بل علمنا القرآن أن جناية الإنسان على غيره تعد جناية على البشر كلهم لا على المتصلين معه برابطة الأمة الدينية أو الجنسية أو السياسية بقوله عز وجل ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾^(١).

وإذا كان الله سبحانه يرشدنا بأنه يجب علينا أن نحترم نفوس الناس بعدّها أو يجعلها كنفوسنا فاحترامنا لأنفسنا يجب أن يكون أولى.

فلا يباح بحال من الأحوال أن يقتل أحد نفسه كأن يبغضها ليستريح من الغم وشقاء الحياة، فمهما اشتدت المصائب على المؤمن فإنه يصبر ويحتسب ولا ينقطع رجاؤه من الفرج الإلهي.

ولذلك نرى بخع النفس (الانتحار) يكثر حيث يقل الإيمان ويفشو الكفر والإلحاد، ومن فوائد الإيمان مدافعة المصائب والأكدار، فالمؤمن لا يتألم من بؤس الحياة كما يتألم الكافر، فليس من شأنه أن يبغض نفسه حتى ينهى عن ذلك نهيا صريحاً^(٢).

ويمكن أن يجاب عن هذا - كما يقول الرازي - بأن المؤمن مع كونه مؤمناً بالله واليوم الآخر، قد يلحقه من الغم والأذى ما يكون القتل عليه أسهل من ذلك.

(١) المائدة: ٣٢.

(٢) راجع تفسير المنارج ٥ ص ٣٧.

ولذلك نرى كثيرًا من المسلمين قد يقتلون أنفسهم بمثل السبب الذى ذكرناه، وإذا كان كذلك كان فى النهى عنه فائدة^(١).

ويقول القرطبى "وأجمع أهل التأويل على أن المراد بهذه الآية أن يقتل بعض الناس بعضًا، ثم لفظها يتناول أن يقتل الرجل نفسه بقصد منه للقتل فى الحرص على الدنيا وطلب المال بأن يحمل نفسه على الغرر المؤدى إلى التلف، ويحتمل أن يقال "ولا تقتلوا أنفسكم" فى حال ضجر أو غضب فهذا كله يتناوله النهى^(٢).

ونقل الزمخشري عن الحسن قوله "ولا تقتلوا أنفسكم" أى لا يقتل الرجل نفسه كما يفعل بعض الجهلة^(٣).

ويذكر ابن كثير أن أبا بكر بن مرويه أورد عند هذه الآية الكريمة من حديث الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ "من قتل نفسه بحديدة فحديده فى يده يحيا بها بطنه يوم القيامة فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن قتل نفسه بسم تردى به فسمه فى يده يتحساه فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا".

وهذا الحديث ثابت فى الصحيحين^(٤).

(١) التفسير الكبير ج ١٠ ص ٧٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج ٥ ص ١٥٦ - ١٥٧.

(٣) تفسير الكشاف ج ١ ص ٥٢٢.

(٤) تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ٤٨٠ ونص رواية البخارى هكذا "من تردى من جبل فقتل نفسه فهو فى نار جهنم يتردى فيه خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن تحصى سماً فقتل نفسه فسمه فى يده يتحساه فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن قتل نفسه بحديدة فحديده فى يده يحيا بها فى بطنه فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا.

فتح البارى ج ١٠ ص ٢٥٨ دار الريان للتراث ١٩٨٧م تحت باب شرب السم والدواء به من كتاب الطب. ورواية مسلم كرواية البخارى إلا أنه قدم القتل بحديدة وآخر التردى من الجبل. صحيح مسلم بشرح النووى ج ٢ ص ١١٨ فى باب بيان غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه وجاء فى الترغيب والترهيب للمنزى أن هذا الحديث رواه الشيخان والترمذى بتقديم وتأخير والنسائى وأبو داود. ج ٣ ص ٢٠٥ نشر دار الحديث بالقاهرة.

وكذلك رواه أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه، وعن أبي قلابة عن ثابت بن الضحاك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "من قتل نفسه بشىء عذب به يوم القيامة".

وقد أخرجه الجماعة في كتبهم من طريق أبي قلابة^(١).

وجاء في الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى أن ثابت بن الضحاك بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة وأن رسول الله ﷺ قال: "من حلف على يمين بملة غير الإسلام كاذبا متعمدا فهو كما قال، ومن قتل نفسه بشىء عذب به يوم القيامة، وليس على رجل نذر فيما لا يملك، ولعن المؤمن كقتله، ومن رمى مؤمنا بكفر فهو كقتله، ومن ذبح نفسه بشىء عذب به يوم القيامة".

رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى باختصار والترمذى وصححه ولفظه أن النبي ﷺ قال: ليس على المرء نذر فيما لا يملك ولا عن المؤمن كقاتله ومن قذف مؤمنا بكفر فهو كقاتله ومن قتل نفسه بشىء عذبه الله بما قتل به نفسه يوم القيامة^(٢).

وورد في الصحيحين من حديث الحسن بن جندب عن عبد الله البجلي قال: قال رسول الله ﷺ "كان رجل ممن كان قبلكم وكان به جرح فأخذ سكيناً نحر بها يده فما رقا الدم حتى مات، قال الله عز وجل عبدى بادرنى بنفسه حرمت عليه الجنة"^(٣).

وورد في الصحيحين أيضاً عن معمر الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: شهدنا مع رسول الله ﷺ خبير، فقال رسول الله ﷺ لرجل ممن معه يدعى الإسلام: هذا من أهل النار، فلما حضر القتال قاتل الرجل من أشد

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٨٠.

(٢) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٢٠٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ٤٨٠ وانظر رواية البخارى في فتح البارى لابن حجر ج ٣ ص ٢٦٨ تحت باب ما جاء فى قاتل النفس من كتاب الجنائز وانظر رواية مسلم فى باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه وفى رواية أخرى لمسلم أنه خرجت منه قرحة فلما أذته انتزع سهما من كنانته فنكأها فلم يرقأ الدم حتى مات.

القتال، وكثرت به الجراح فأثبتته، فجاء رجل من أصحاب النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أرايت الذى تحدث أنه من أهل النار؟ قاتل فى سبيل الله أشد القتال فكثرت به الجراح. فقال النبي ﷺ: أما إنه من أهل النار، فكاد بعض المسلمين يرتاب، فيها هو على ذلك إذ وجد الرجل ألم الجراح، فأهوى بيده إلى كنانته فانزع منها سهمًا فانحصر بها، فاشتد رجال من المسلمين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، صدق الله حديثك قد انتحر فلان فقتل نفسه، فقال رسول الله ﷺ: يا بلال، قم فأذن: لا يدخل الجنة إلا مؤمن، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر^(١).

وجاء فى الصحيحين كذلك عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ التقى هو والمشركون فاقتتلوا فلما مال رسول الله ﷺ إلى عسكره ومال الآخرون إلى عسكرهم وفى أصحاب رسول الله ﷺ رجل لا يدع لهم شاة إلا اتبعها يضربها بسيفه فقالوا ما أجزأنا اليوم أحد كما أجزأ فلان فقال رسول الله ﷺ: أما إنه من أهل النار^(٢).

وفى رواية البخارى^(٣) أن رجلا من أعظم المسلمين غناء عن المسلمين فى غزوة غزاها مع النبي ﷺ، فنظر النبي ﷺ فقال: من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار فليُنظر إلى هذا، فاتبعه رجل من القوم وهو على تلك الحال من أشد الناس على المشركين.

وفى رواية مسلم فقال رجل من القوم أنا صاحبه أبدا قال فخرج معه كلما وقف وقف معه وإذا أسرع أسرع معه قال: فجرح الرجل جرحا شديدا فاستعجل الموت فوضع نصل سيفه بالأرض وذبابه بين ثديه ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه، فخرج الرجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أشهد أنك رسول الله قال: وما ذاك، قال الرجل الذى ذكرت أنك من أهل النار (ثم ذكر للرسول ﷺ ما حدث له وما وقع منه).

(١) هذا هو نص رواية الإمام البخارى ووردت فى باب العمل بالخواتيم من كتاب القدر ج ١١ ص ٥٠٧ فتح البارى لابن حجر العسقلانى وانظر رواية الإمام مسلم لهذا فى باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه.

(٢) نص رواية مسلم فى نفس الباب المشار إليه.

(٣) فى نفس الباب المشار إليه (باب العمل بالخواتيم).

فقال رسول الله ﷺ: إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة.

وفي رواية البخارى "إن العبد ليعمل عمل أهل النار وإنه من أهل الجنة، ويعمل عمل أهل الجنة وإنه من أهل النار، وإنما الأعمال بالخواتيم"^(١).

ومن خلال هذه الأحاديث وكثير غيرها يتبين لنا تحريم الإسلام لقتل الإنسان نفسه، وتشديد النكير على من يفعل ذلك والوعيد له بسوء الخاتمة وشر العاقبة بدخوله النار وإذاقته من أشد ألوان العذاب حتى يكون ذلك زجرا لمن تسول له نفسه أن يقدم على هذا الخطر ويرتكب ذلك الجرم^(٢).

ولهذا قال تعالى ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدُونَا وَظَلَمْنَا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾^(٣).

يقول ابن كثير "أى ومن يتعاطى ما نهاه الله عنه متعديا فيه ظلما في تعاطيه، أى عالما بتحريمه متجاسرا على انتهاكه فسوف نصليه نارا وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد فليحذر منه كل عاقل لبيب ممن ألقى السمع وهو شهيد"^(٤).

(١) روى البخارى أيضا في باب ما جاء في قاتل النفس عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال ﷺ يُخْنَقُ نفسه يُخْنَقُها في النار، والذي يطعنها يطعنها في النار".

وروى مسلم عن جابر بن سمرة أنه أتى النبى ﷺ برجل قتل نفسه بمشاقص فلم يصل عليه.

(٢) للعلماء أقوال في فهم هذه الأحاديث وخاصة في قول النبى ﷺ "فهو في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا" ف قيل إنه محمول على من فعل ذلك مستحلا مع علمه بالتحريم فهذا كافر وهذه عقوبته وقيل إن المراد بالخلود طول المدة والإقامة المتطاولة لا حقيقة الدوام وغير ذلك مما اجتهد فيه العلماء وكذلك في ترك النبى الصلاة على من قتل نفسه بمشاقص فقد أورد الإمام النووى اختلاف العلماء في فهم هذه الأحاديث من خلال المذاهب والفرق المختلفة ولم أعرض لهذا خشية التطويل وليكون الاستشهاد بالأحاديث على ما ذهبت إليه من تحريم قتل النفس قويا ومن أراد الزيادة فعليه بشرح وتعليق الإمامين النووى وابن حجر في شرح صحيح مسلم وفتح البارى وغيرهما من كتب علم الكلام والفقه.

(٣) النساء: ٣٠.

(٤) تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ٤٨٠.

وإذا كان بعض المفسرين قد فسروا النهى الوارد في هذه الآية بالنهى عن قتل المسلمين بعضهم لبعض، وفسره البعض الآخر بالنهى عن قتل الإنسان لنفسه فإن هناك من جمع في النهى عن القتل بين الأمرين فقال: أى لا تقتلونها حقيقة بالانتحار ولا مجازا بقتل بعضكم لبعض^(١).

وذكر بعض المفسرين في قوله تعالى "ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما" أن الله أمر بنى إسرائيل بقتلهم أنفسهم ليكون توبة لهم وتمحيصا لخطاياهم وكان بكم يا أمة محمد رحيما حيث لم يكلفكم تلك التكاليف الصعبة^(٢).

ومما يذكر أن عمرًا بن العاص قد احتج بهذه الآية حين امتنع عن الاغتسال بالماء البارد وذلك عندما أجنب في غزوة ذات السلاسل خوفا على نفسه منه، فقرر النبي ﷺ احتجاجه وضحك عنده ولم يقتل شيئا^(٣).

روى الإمامان أحمد وأبو داود عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال: لما بعثه النبي ﷺ عام ذات السلاسل قال:

احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك فتيمنت ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح قال: فلما قدمنا على رسول الله ﷺ ذكرت ذلك له فقال: "يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب" قال: قلت يا رسول الله إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك فذكرت قول الله عز وجل (ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما) فتيمنت ثم صليت فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئا^(٤).

(١) تفسير المنار ج ٥ ص ٣٦.

(٢) الكشف ج ١ ص ٥٢٢ الألوسى ج ٥ ص ١٦ الرازى ج ١٠ ص ٧٢.

(٣) تفسير القرطبي ج ٥ ص ١٥٧.

(٤) راجع تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ٤٨٠.

تفسير القرطبي ج ٥ ص ١٥٧ - تفسير الألوسى ج ٥ ص ١٦.

النهى عن قتل النفس المحرمة إلا بالحق:

وإذا كان الإسلام قد نهى عن قتل الإنسان لنفسه سواء كان هذا عن طريق النذر أو عن طريق الانتحار فإنه أيضا قد نهى عن قتل الإنسان لغيره بطريق النذر أو بغيره، وحينما أحل قتل النفس جعل ذلك لسبب من الأسباب التى أوردتها الشرع وعبر القرآن الكريم بالحق فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾^(١).

يذكر الرازى أن الأصل فى قتل النفس هو الحرمة وحله لا يثبت إلا بدليل منفصل فقوله (إلا بالحق) أى قتل النفس المحرمة قد يكون حقا لجرم يصدر منها^(٢).

وقد جاء فى الصحيحين تفسيراً لهذا الحق عن ابن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ "لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزانى والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة.

وروى الإمام أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال "لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: رجل كفر بعد إسلامه، أو زنى بعد إحصانه، أو قتل نفسا بغير نفس".

وورد فى القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾^(٣).

ويذكر الألوسى أن النفس التى حرم الله قتلها هى التى عصمها بالإسلام أو

(١) الأنعام: ١٥١ - الإسراء: ٣٢.

(٢) التفسير الكبير ج ١٣ ص ٢٣٣.

(٣) المائدة: ٣٣ راجع فى ذلك تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٨٨ - ١٨٩ تفسير القرطبى ج ٧ ص ١٣٣ -

١٣٤ تفسير الرازى ج ١٣ ص ٢٣٣.

بالعهد فيخرج الحربى ويدخل الذمى، فما روى عن ابن جبير من كون المراد بالنفس المذكورة النفس المؤمنة ليس في محله (إلا بالحق) أى لا تقتلونها في حال من الأحوال إلا حال ملابستكم بالحق الذى هو أمر الشرع بقتلها^(١).

ومن خلال كل ما عرضناه يتبين لنا أنه ليس في الإسلام قرابين بشرية أو ذبائح آدمية من أى نوع بل إنه قضى عليها قضاء تاما وتبين ذلك في نهى الله المشركين عن قتل أولادهم ووآد بناتهم وتبين أيضا في نهى سيدنا عمر رضى الله عنه المصريين عما كانوا يفعلونه بالقربان البشرى المتمثل في فتاة يلقونها في نهر النيل كما سبق أن عرضنا ذلك.

وتبين لنا هذا واضحا في إجماع الفقهاء على أن من نذر نحر نفسه أو ابنه إنما يعد ذلك معصية كبيرة وذنبا عظيما يستحق عليه العقاب ويحتاج منه إلى التوبة والاستغفار.

استدلال الفقهاء بقصة الخليل ورؤياه بذبح ابنه

لكننا كمسلمين ينبغي علينا ونحن نتحدث في هذا الموضوع أن نشير إلى قصة الخليل إبراهيم وكيف أنه أمر بذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام، فأيرادها هنا أمر ضرورى حيث كانت هذه القصة مجالا لاستدلال الفقهاء ومحلا لاستشهادهم حيث نظر إليها كل فقيه أو صاحب مذهب من منطلق معين.

فابن رشد بعد أن لخص اختلاف الفقهاء في الواجب على من نذر أن ينحر ابنه^(٢) علل اختلافهم وأرجع اجتهادهم إلى هذه القصة فهو يقول:

(١) راجع روح المعانى ج ٨ ص ٥٤ - ٥٥.

(٢) يقول ابن رشد "واختلفوا في الواجب على من نذر أن ينحر ابنه في مقام إبراهيم فقال مالك ينحر جزورا فداء له، وقال أبو حنيفة ينحر شاة، وهو أيضا مروي عن ابن عباس، وقال بعضهم بل ينحر مائة من الإبل، وقال بعضهم يهدى ديتة، وروى ذلك عن علي، وقال بعضهم بل يحتج به، قال الليث وقال أبو يوسف والشافعى لا شيء عليه لأنه نذر معصية، ولا نذر في معصية (بداية المجتهد ونهاية المقتصد للشيخ الإمام الحافظ الناقد أبى الوليد محمد ابن أحمد بن محمد ابن رشد القرطبي ج ١ ص ٣٦٤ نشر المكتبة التجارية الكبرى بمصر.

وسبب اختلافهم في هذا الأمر قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام بمعنى هل ما تقرب به إبراهيم هو لازم للمسلمين أو ليس بلام.

فمن رأى أن ذلك شرع خص به إبراهيم قال لا يلزم النذر، ومن رأى أنه لازم لنا قال: النذر لازم.

والخلاف في هل يلزمنا شرع من قبلنا مشهور، لكن يتطرق إلى هذا خلاف آخر، وهو أن الظاهر من هذا الفعل أنه كان خاصا بإبراهيم ولم يكن شرعا لأهل زمانه، وعلى هذا فليس ينبغي أن يختلف: هل هو شرع لنا أو ليس بشرع.

والذين قالوا أنه شرع إنما اختلفوا في الواجب في ذلك من قبل اختلافهم أيضا في هل يحمل الواجب في ذلك على الواجب على إبراهيم أو يحمل على غير ذلك من القرب الإسلامية، وذلك إما صدقة بديته وإما حج به، وإما هدى بدنة، وأما الذين قالوا مائة من الإبل فذهبوا إلى حديث عبد المطلب^(١).

فمن الذين رأوا أن ما تقرب به سيدنا إبراهيم عليه السلام هو لازم للمسلمين الإمام أبو حنيفة والقاضي ابن العربي وقد سبق أن أوردنا حجتهما في هذا الشأن.

ويضيف شمس الدين السرخسي إلى ما ذكرناه من حجة أبي حنيفة فيذكر أن من أوجب الشاة فإنما أوجبها استدلالا بقصة الخليل صلوات الله عليه، ومن أوجب مائة من الإبل فإنما أوجبها استدلالا بفعل عبد المطلب، والأخذ بفعل الخليل صلوات الله عليه أولى من الأخذ بفعل عبد المطلب، وهو الاستدلال الفقهي في المسألة فإن الشاة محل لوجوب ذبحها بإيجاب ذبح مضاف إلى الولد فكان إضافة النذر بالذبح إلى الولد بهذا الطريق كالإضافة إلى الشاة فيكون ملزمة.

وبيانه أن الخليل صلوات الله وسلامه عليه أمر بذبح الولد كما أخبر به ولده فقال الله تعالى مخبرا عنه إنى أرى في المنام أنى أذبحك أى أمرت بذبحك بدليل أن ابنه قال في الجواب يا أبت أفعل ما تؤمر ولأنها اعتقدا الأمر بذبح الولد حيث اشتغلا

(١) بداية المجتهد ج ١ ص ٣٦٤ - ٣٦٥.

فأقر عليه وتقرير الرسل على الخطأ لا يجوز خصوصا فيما لا يحل العمل فيه بغالب
الرأى من إراقة دم نبى ثم وجب عليه بذلك الأمر ذبح الشاة لأن الله تعالى قال:
ونادينا أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا أى حققت وإنما حقق ذبح الشاة فلا يجوز
أن يقال إنما سماه مصدقا رؤياه قبل ذبح الشاة لأن فى الآية تقديما وتأخيرا معناه
"وفديناه بذبح عظيم ونادينا يا إبراهيم".

وهذا لأن قبل ذبح الشاة إنما أتى بمقدمات ذبح الولد من تله للجبين وإمراره
السكين على حلقه وبه لم يحصل الامتثال لأنه ليس بذبح ولأنه لو حصل الامتثال به
لم تكن الشاة فداء ولا يجوز أن يقول وجوب الشاة بأمر آخر لأن إثبات أمر آخر
بالرأى غير ممكن ولأنه حينئذ لا يكون فداء والله تعالى سمى الشاة فداء.... وينتهى
السرخسى إلى أنه قد ورد أن الخليل كان قد نذر الذبح لأول ولد يولد له ثم نسى
ذلك فذكر فى المنام فإن ثبت هذا فهو نص لأن شريعة من قبلنا تلزمنا ما لم يظهر
ناسخه خصوصا شريعة الخليل صلوات الله عليه قال الله تعالى "فاتبع ملة إبراهيم
حنيفا"^(١).

ويذهب أبو بكر الجصاص وهو حنفى إلى أنه قد تضمن الأمر بذبح الولد إيجاب
شاة فى العاقبة فلما صار موجب هذا اللفظ إيجاب شاة فى المتعقب فى شريعة إبراهيم
عليه السلام وقد أمر الله باتباعه بقوله تعالى (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم
حنيفا) وقال (أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده) وجب على من نذر ذبح ولده
شاه.

ويقول "ظاهر الآية يدل على قول أبى حنيفة فى ذبح الولد لأن هذا اللفظ قد
صار عبارة عن إيجاب شاة فى شريعة إبراهيم عليه السلام فوجب بقاء حكمه ما لم
يثبت نسخه"^(٢).

(١) راجع المبسوط لشمس الدين السرخسى ج ٨ ص ١٣٩ - ١٤٢.

(٢) أحكام القرآن للجصاص: أبى بكر أحمد بن على الرازى الحنفى ج ٣ ص ٣٧٧ نشر دار الكتاب
العربى بيروت.

ومن الذين قالوا أن ما حدث شرع خص به إبراهيم وحده أصحاب الإمام أحمد بن حنبل ويذكر ابن قدامة أن هذا أمر مختص بإبراهيم عليه السلام لا يتعداه إلى غيره لحكمة علمها الله فيه، ثم يقول "لو كان إبراهيم مأمورا بذبح كبش فقد ورد شرعنا بخلافه فإن نذر ذبح الابن ليس بقربة في شرعنا ولا مباح بل هو معصية فتكون كفارته ككفارة سائر نذور المعاصي"^(١).

والذى يلفت النظر في كلام ابن رشد وفي استدلال ابن قدامة ما ذكر أن الظاهر من هذا الفعل أنه كان خاصا بإبراهيم وحده لا يتعداه إلى غيره لحكمة علمها الله فيه وأنه لم يكن شرعا لأهل زمانه.

معنى ذلك أن الله أمر به إبراهيم الخليل وحده لم يأمر به غيره فلا يستطيع أحد أن يدعى أن الله أمره بتقديم قربان بشرى إليه بوحى أو بغيره وإنما كانوا يقدمون هذه القرابين البشرية إلى آلهتهم اعتقادًا منهم وتأثير من كهنتهم أنها تسكن غضب آلهتهم وينالون بها الرضى عنهم.

لكن وجه الإشكال هنا هو إذا كان الفقهاء قد أجمعوا على أن من نذر ذبح نفسه أو نحر ولده إنما يعد ذلك معصية تغضب الله وجريمة تستوجب عقابه وأن الله لم يأمر أحدا بذلك إلا إبراهيم عليه السلام حيث أمره بذبح ولده رغم أن هذا في حكم الفقهاء معصية.

فكيف يؤمر إبراهيم بذبح الولد وهو معصية والأمر بالمعصية لا يجوز؟ ويحيب ابن العربي على ذلك بقوله إن هذا اعتراض على كتاب الله، فلا يكون ذلك ممن يعتقد الإسلام، فكيف ممن يفتى في الحلال منه والحرام؟ وقد قال الله تعالى: افعل ما تؤمر.

ثم يقول "والذى يجلو الالتباس عن قلوب الناس في ذلك أن المعاصي والطاعات ليست بأوصاف ذاتية للأعيان، وإنما الطاعة عبارة عما تعلق به الأمر من

(١) المغنى ج ١١ ص ٢١٦-٢١٧.

الأفعال، والمعصية عبارة عما تعلق به النهى من الأفعال، فلما تعلق الأمر بذبح الولد إسماعيل من إبراهيم صار طاعة وابتلاء، ولهذا قال الله تعالى "إن هذا هو البلاء المبين" أى الصبر على ذبح الولد والنفس ولما تعلق النهى بنا فى ذبح أبنائنا صار معصية^(١).

فإن قيل: كيف يصير نذرا وهو معصية؟

قلنا: إنما يصير معصية لو كان هو يقصد ذبح ولده بنذره ولا ينوى الفداء.

فإن قيل: فإن وقع ذلك وقصد المعصية ولم ينو الفداء؟

قلنا: لو قصد ذلك لم يضره فى قصده، ولا أثر فى نذره، لأن ذبح الولد صار عبارة عن ذبح الشاة شرعا.

فإن قيل: فكيف يصح أن يكون عبارة عنه وكناية فيه، وإنما يصح أن يكون الشيء كناية عن الشيء بأحد وجهين: إما باشتباههما فى المعنى الخاص، وإما بنسبة تكون بينهما وهما لا نسبة بين الطاعة وهو النذر، ولا بين المعصية وهى ذبح الولد، ولا تشابه أيضا بينهما، فإن ذبح الولد ليس بسبب لذبح الشاة.

قلنا: هو سبب له شرعا لأنه جعل كناية عنه فى الشرع. والأسباب إنما تعرف عادة أو شرعا^(٢).

التحقيق فى أمر الله لإبراهيم بذبح ولده:

وحيثما نريد أن نبحث فى مسألة الأمر لإبراهيم الخليل بذبح ولده إسماعيل^(٣) عليهما السلام فإنه ليحسن بنا أن نرجع إلى النصوص القرآنية الواردة فى هذه القصة ونتحاكم إليها.

(١) أحكام القرآن ج ٤ ص ١٦٢٠ تحقيق على محمد البجاوى دار الجيل بيروت ١٩٨٧ م.

(٢) المصدر السابق.

(٣) لمعرفة من هو الذبيح: إسماعيل أم إسحاق راجع كتابى: قصى الذبيح عند أهل الكتاب والمسلمين (عرض ونقد) دار البشير ١٩٩٤ م..

يقول الله تعالى ﴿فَبَشِّرْنَهُ بِنُحْمٍ حَلِيمٍ﴾ ﴿١١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَىٰ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَتَأَبَّأُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٣﴾ وَتَدَيَّنَّهُ أَنْ يَتَلَبَّسَ بِهِمَا ﴿١٤﴾ قَدْ صَدَّقَتْ الرُّيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٥﴾ إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَتَدَيَّنَّهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٧﴾.

وفي تفسير قوله تعالى (قال يا بنى ابنى ارى فى المنام انى اذبحك فانظر ماذا ترى).

يقول السدى: إن إبراهيم حين بشر بولده قبل أن يولد له قال هو إذن لله ذبيح فقيل لإبراهيم قد نذرت نذرا فف بنذكرك فلما أصبح فقال يا بنى ابنى ارى فى المنام انى اذبحك فانظر ماذا ترى^(١).

وقد روى من طريق آخر أنه رأى ليلة التروية فى منامه كأن قائلا يقول له: إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا، فلما أصبح تروى فى ذلك من الصباح إلى الرواح، أمن الله هذا الحلم أم من الشيطان؟ فمن ثم سمي يوم التروية، فلما أمسى رأى مثل ذلك فعرف أنه من الله فسمى يوم عرفة، ثم رأى مثله فى الليلة الثالثة فهم بنحره فسمى يوم النحر^(٢).

وهذا - كما يقول الرازى - هو قول أهل التفسير وهو يدل على أنه رأى فى المنام ما يوجب أن يذبح ابنه فى القطة، وعلى هذا فتقدير اللفظ: ابنى ارى فى المنام ما يوجب أن اذبحك^(٣).

ويذكر الألوسى أنه يحتمل أنه عليه السلام رأى فى منامه أن فعل ذبحه فحمله على ما هو الأغلب فى رؤيا الأنبياء عليهم السلام من وقوعها بعينها^(٤).

(١) الصفات: ١٠١ - ١٠٧.

(٢) الكشف ج ٣ ص ٣٤٨ تفسير الرازى ج ٢٦ ص ١٥٣ القرطبى ج ١٥ ص ١٠٢ الألوسى ج ٢٣ ص ١٢٨.

(٣) راجع المصادر السابقة.

(٤) التفسير الكبير ج ٢٦ ص ١٥٣.

(٥) روح المعانى ج ٢٣ ص ١٢٨.

ويحتمل أنه رأى ما تأويله ذلك لكن لم يذكره وذكر التأويل كما يقول الزمخشري
أتى في المنام فقيل له: اذبح ابنك ورؤيا الأنبياء وحى كالوحى فى اليقظة فلهذا قال
(إنى رأى فى المنام أنى أذبحك) فذكر تأويل الرؤيا كما يقول الممتحن وقد رأى أنه
راكب فى سفينة رأيت فى المنام أنى ناج من هذه المحنة^(١).

وقيل إنه رأى معالجة الذبح ولم ير إنهار الدم فأنى أذبحك أى إنى أعالج
ذبحك^(٢).

وذكر الرازى أنه رأى فى المنام أنه يذبحه ورؤيا الأنبياء عليهم السلام من باب
الوحى. وعلى هذا القول فالمرئى فى المنام ليس إلا أنه يذبح^(٣).

وقال محمد بن كعب: كانت الرسل يأتيهم الوحى من الله تعالى أيقاظا ورقودا
فإن الأنبياء لا تنام قلوبهم وهذا ثابت فى الخبر المرفوع قال ﷺ "إننا معاشر الأنبياء
تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا".

وقال ابن عباس "رؤيا الأنبياء وحى واستدل بهذه الآية^(٤).

فإن قيل: إما أن يقال أنه ثبت بالدليل عن الأنبياء عليهم السلام أن كل ما رآه فى
المنام فهو حق حجة أو لم يثبت ذلك بالدليل عندهم.

فإن كان الأول فلم راجع الولد فى هذه الواقعة بل كان من الواجب عليه أن
يشتغل بتحصيل ذلك المأمور، وأن لا يراجع الولد فيه وأن لا يقول له "فانظر ماذا
ترى" وأن لا يوقف العمل على أن يقول له الولد (افعل ما تؤمر)^(٥)؟.

ويقول الزمخشري فى ذلك: فإن قلت: لم شاوروه فى أمر هو حتم من الله؟ ويجيب

(١) المصدر السابق وتفسير الكشاف ج ٣ ص ٣٤٨.

(٢) روح المعانى ج ٢٣ ص ١٢٨.

(٣) مفاتيح الغيب ج ٢٦ ص ١٥٣.

(٤) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ١٠٢.

(٥) مفاتيح الغيب ج ٢٦ ص ١٥٣.

بقوله: لم يشاوره ليرجع إلى رأيه ومشورته ولكن ليعلم ما عنده فيما نزل به من بلاء الله فيثبت قدمه ويصبره إن جزع ويأمن عليه الزلل إن صبر وسلم، وليعلمه حتى يراجع نفسه فيوطنها ويهون عليها ويلقى البلاء وهو كالمستأنس به، ويكتسب المثوية للانقياد لأمر الله قبل نزوله ولأن المغافضة بالذبح مما يستسمح وليكون سنة في المشاورة^(١).

ويرى ابن كثير أن الخليل أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه وليختبر صبره وجلده وعزمه في صغره على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه^(٢).

وإن قيل: قد قلت إنه بقي في اليوم الأول متفكرا ولو ثبت عنده بالدليل أن كل ما رآه في النوم فهو حق لم يكن إلى هذا التروى والتفكر حاجة، وإن كان الثاني وهو أنه لم يثبت بالدليل عندهم أن ما يروونه في المنام حق فكيف يجوز له أن يقدم على ذبح ذلك الطفل بمجرد رؤيا لم يدل الدليل على كونها حجة؟ والجواب كما يقول الرازي لا يبعد أن يقال إنه كان عند الرؤيا مترددا فيه ثم تأكدت الرؤيا بالوحي الصريح والله أعلم^(٣).

ويذكر الألوسي أن الأمر لا يعدو إما مناما وإما يقظة لكن أمر اليقظة وقع تأكيدا لما في المنام إذ لا محيص عن الإيذان بما قصه الله تعالى علينا فيما أعجز به الثقلين من القرآن والحزم بكونه في المنام لا غير وليس في الأخبار الصحيحة ما يدل على وقوعه يقظة أيضا^(٤).

وبيان الحكمة في ورود هذا التكليف في النوم لا في اليقظة من وجوه:
الأول: أن هذا التكليف كان في نهاية المشقة على الذابح والمذبوح فورد أولا في

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٣٤٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم ج ٤ ص ١٥.

(٣) التفسير الكبير ج ١٦ ص ١٥٣.

(٤) روح المعاني ج ٢٣ ص ١٢٨.

النوم حتى يصير ذلك كالمنبه لورود هذا التكليف الشاق ثم يتأكد حال النوم بأحوال اليقظة فحينئذ لا يهجم هذا التكليف دفعة واحدة بل شيئاً فشيئاً^(١).

الثاني: أن تكون المبادرة إلى الامتثال أدل على كمال الانقياد وتمام الإخلاص^(٢).

الثالث: أن الله تعالى جعل رؤيا الأنبياء عليهم السلام حقاً: فكما أرى يوسف عليه "السلام سجود أبويه وإخوته له في المنام من غير وحى إلى أبيه فقال ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾^(٣).

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾^(٤).

وكما وعد رسوله ﷺ دخول المسجد الحرام في المنام فقال ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾^(٥).

فإنه قال في حق إبراهيم أنى أرى في المنام أنى أذبحك " والمقصود من ذلك تقوية الدلالة على كونهم صادقين مصدوقين لأن الحال إما حال يقظة وإما حال منام فإذا تظاهرت الحالتان على الصدق كان ذلك أقوى للدلالة من انفراد أحدهما على كونهم محققين صادقين في كل الأحوال^(٦).

وإذا ثبت أن رؤيا الأنبياء وحى فإن إبراهيم قال لابنه: رأيت أنى أذبحك في

(١) تفسير الرازى ج ٢٦ ص ١٥٦.

(٢) تفسير الألوسى ج ٢٣ ص ١٢٩ تفسير البيضاوى ج ٢ ص ٢٩٧.

(٣) يوسف: ٤.

(٤) يوسف: ١٠٠.

(٥) الفتح: ٢٧.

(٦) الكشف ج ٣ ص ٣٤٨ مفاتيح الغيب ج ٢٦ ص ١٥٦ ويذكر الفخر الرازى أن منامات الأنبياء عليهم السلام ثلاثة أقسام منها ما يقع على وفق الرؤية كما في قوله تعالى في حق رسولنا ﷺ (لتدخلن المسجد الحرام) ثم وقع ذلك الشئ بعينه، ومنها ما يقع على الضد كما في حق إبراهيم عليه السلام فإنه رأى الذبح وكان الحاصل هو الفداء والنجاة، ومنها ما يقع على ضرب من التأويل والمناسبة كما في رؤيا يوسف عليه السلام، فلهذا السبب أطبق أهل التعبير على أن المنامات واقعة على هذه الوجوه الثلاثة. (التفسير الكبير ج ٢٦ ص ١٥٧).

المنام، فأخذ الوالد والولد الرؤيا بظاهرها واسمها، وقال له: افعل ما تؤمر، إذ هو أمر من قبل الله تعالى، لأنها علما أن رؤيا الأنبياء وحى الله واستسلما لقضاء الله، هذا في قرّة عينه، وهذا في نفسه أعطى ذبحا فداء، وقيل له: هذا فداؤك، فامتثل فيه ما رأيت فإنه حقيقة ما خاطبتك فيه، وهو كناية. لا اسم، وجعله مصدقا للرؤيا بمبادرته الامتثال، فإنه لا بد من اعتقاد الوجوب والتهيؤ للعمل^(١).

فلما اعتقدا الوجوب: وتهيأ للعمل، هذا بصورة الذابح، وهذا بصورة المذبح، أعطى محلا للذبح فداء عن ذلك المرئى في المنام يقع موضعه برسم الكناية وإظهار الحق الموعد فيه.

فإن قيل: قد قال له الولد "يا أبت أفعل ما تؤمر" فأين الأمر؟ يقول ابن العربي: هما كلمتان إحداهما من الولد إبراهيم، والثانية من الولد إسماعيل، فأما كلمة إبراهيم فهي قوله أذبحك وهو خبر لا أمر، وأما كلمة إسماعيل: افعل ما تؤمر، وهو أمر.

وقول إبراهيم "إنى أرى فى المنام أنى أذبحك" وإن كانت صيغته صيغة الخبر فإن معناها الأمر ضرورة، لأنه لو كان عبارة عن خبر واقع لما كان له تأويل ينتظر، وإنما هو بصيغة الخبر، ومعناه الأمر ضرورة، فقال إسماعيل لأبيه إبراهيم: "افعل ما تؤمر" فعبّر عن نفسه بالانقياد إلى معنى خبر أبيه، وهو الأمر.

ولذلك قال الله تعالى: "قد صدقت الرؤيا" حين تيسر للعمل وأقبلا على الفعل، فكان صدقها ذبحا مكانها، وهو الفداء، وكان ذلك أمرا فى المعنى ضرورة، فكان ما كان من إبراهيم امتثالا، ومن إسماعيل انقياد، ووضحت المعانى بحقيقتها، وجرت

(١) ابن العربي أحكام القرآن ج ٤ ص ١٦١٨ - ١٦١٩ ما يقوله ابن العربي هو الحق المتفق مع جلال الأنبياء على عكس ما ورد فى لطائف الإشارات للإمام القشيري فقد ذكر أنه يقال أن معنى قول إسماعيل "يا أبت افعل ما تؤمر" لا تحكم فيه بحكم الرؤيا، فإنها قد تصيب وقد يكون لها تأويل، فإن كان هذا أمرا فافعل بمقتضاه، وإن كان لها تأويل فتثبت فقد يمكن ذبح ابنك كل الوقت ولكن لا يمكن تلافيه (لطائف الإشارات: تفسير صوفي كامل للقرآن الكريم المجلد الثالث ص ٢٣٨ تقديم وتحقيق وتعليق د/ إبراهيم بسيونى الطبعة الثانية ١٩٨٣ نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب.

الألفاظ على نصابها لصوابها، ولم يحتج إلى تأويل فاسد بقلب الجلد نحاسا أو غيره^(١).

حيث ذكر بعضهم أنه وجد حلقه نحاسا أو مغشى بنحاس فكان كلما أراد قطعاً وجد منعاً، وقال بعضهم كان كلما قطع جزء التثم وروى عن مجاهد أن الذبيح قال لإبراهيم عليه السلام حين أراد ذبحه: يا أبت أشدد رباطي حتى لا أضطرب، واكفف ثيابك لئلا ينتضح عليها شيء من دمي فتراه أُمى فتحزن، وأسرع مر السكين على حلقى ليكون الموت أهون على، وكبني على وجهي لئلا تنظر إلى فترحمني ولئلا أنظر إلى الشفرة فأجزع، وإذا أتيت إلى أُمى فأقرئها مني السلام، فلما جر إبراهيم عليه السلام السكين ضرب الله عليه صفيحة من نحاس فلم تعمل السكين شيئاً، ثم ضرب به على جبينه وحز في قفاه فلم تعمل السكين شيئاً^(٢).

وهذا كله - كما يقول ابن العربي وذكره أيضاً القرطبي - جائز في القدرة الإلهية ولكن يفتقر إلى نقل صحيح، فإنه لا يدرك بالنظر، وإنما طريقه الخبر، وكان الذبح والتثام الأجزاء بعد ذلك أوقع في مطلوبهم من وضع النحاس موضع الجلد واللحم وكله أمر بعيد عن العلم، ولو كان قد جرى ذلك لبينه الله تعالى تعظيماً لرتبة إسماعيل وإبراهيم صلوات الله عليهما، وكان أولى بالبيان من الفداء^(٣).

ويذكر الألويسي أن كثيراً من أجلة العلماء ذهبوا إلى عدم إمرار الشفرة على حلق الذبيح ونقل عن الإمام أحمد ما رواه عن ابن عباس أن إبراهيم عليه السلام لما أخذ الشفرة وأراد أن يذبح إسماعيل نودى من خلفه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا^(٤).

وأخرج الإمام أحمد أيضاً وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن إبراهيم أنه عالج قميصه ليخلعه فنودى بذلك.

(١) أحكام القرآن ج ٤ ص ١٦١٨ - ١٦١٩.

(٢) راجع المصدر السابق ج ٤ ص ١٦١٨ تفسير القرطبي ج ١٥ ص ١٠٢ - ١٠٤ تفسير ابن كثير ج ٤ ص ١٦ تفسير الرازي ج ٢٦ ص ١٥٨ روح المعاني ج ٢٣ ص ١٣٠.

(٣) أحكام القرآن ج ٤ ص ١٦١٨ تفسير القرطبي ج ١٥ ص ١٠٢ - ١٠٣.

(٤) روح المعاني ج ٢٣ ص ١٣٠.

وأخرج ابن المنذر والحاكم وصححه من طريق مجاهد عنه أيضاً؟ فلما أدخل يده ليزبحه فلم يحمل المذبة حتى نودى يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا وأمسك يده^(١).

أما ورد من إمرار الشفرة وانقلاب السكين والتنام الأجزاء إلى غير ذلك فإنه لم يصح كما صرح القرطبي^(٢) وقال الألوسي إن البعض زعم ورود ذلك في بعض الأخبار لكنه لا يكاد يصح^(٣).

بل أن بعضهم قال: إن إبراهيم ما أمر بالذبح الحقيقي الذي هو فري الأوداج وإنهار الدم، وإنما رأى أنه أضجعه للذبح فتوهم أنه أمر بالذبح الحقيقي^(٤)، فلما أتى

(١) المصدر السابق ص ١٣٠ - ١٣١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج ١٥ ص ١٠٤.

(٣) روح المعاني ج ٢٣ ص ١٣١.

(٤) يرى صاحب كتاب فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت أن إبراهيم عليه السلام لم يؤمر بذبح الولد وإنما ظن أنه ما أمر بذلك على طريقة الخطأ في الاجتهاد والغلط في التعبير (أى تفسير الرؤيا) وإنما رأى في المنام أنه يذبح ابنه ولم ير أنه يؤمر بهذا الذبح فعرض على الابن طلباً للمشورة فقال أنى أرى في المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى فظنه الابن أمراً بناء على أن رؤيا الأنبياء وحى أو على أمر آخر فقد أصاب في ظنه أمراً لكن أخطأ في ظنه بذبح الولد كما يخطئ المجتهد في الاجتهاد فقال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين، وتقرر هذا في رأى إبراهيم عليه الصلاة والسلام كما كان غالباً على عادته حيثئذ عدم كون رؤياه معبرة ولما وصل إليه اجتهداه وجب الامتثال إلى أن يظهر الخطأ فهم بالذبح فلم ينقطع حلقومه إما بصفيحة ضربت كما قيل أو بغيره ولما لم يكن الأنبياء مقرين على الخطأ أعلمه الله تعالى وناداه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا (هكذا يتجرأ هذا الشيخ ويصف إبراهيم وابنه بالخطأ ويرميها بالوهم والغلط).

وينقل عن ابن عربى قوله في فصوص الحكم "اعلم أيدينا الله وإياك أن إبراهيم الخليل عليه السلام قال لابنه إني أرى في المنام أنى أذبحك والمنام حضرة الخيال فلم يعبرها وكان كيشا ظهر في صورة ابن إبراهيم في المثال فصدق إبراهيم الرؤيا فقدها ربه من وهم إبراهيم بالذبح العظيم وهو تعبير رؤياه عند الله وهو لا يشعر بالتجلى الصورى في حضرة الخيال محتاج إلى علم آخر يدرك به ما أراد الله بتلك الصورة ألا ترى كيف قال رسول الله ﷺ وعلى آله وأصحابه وسلم لأمير المؤمنين أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه في تعبير الرؤيا أصبت بعضاً وأخطأت بعضاً فسأله أبو بكر أن يعرفه ما أصاب منه وما أخطأ فلم يفعل عليه السلام قال تعالى لإبراهيم حين ناداه يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا وما قال قد صدقت في الرؤيا لأنه ابنك لأنه ما عبرها بل أخذ بظاهر ما رأى والرؤيا تطلب التعبير، (راجع كتاب فواتح الرحموت ص ٦٥ - ٦٧ للعلامة عبد العلى محمد بن نظام الدين الأنصارى بشرح مسلم الثبوت في أصول الفقه للإمام المحقق للشيخ محب الله ابن عبد الشكور) طبع مع كتاب المستصفى للإمام الغزالي نسخة مصورة عن طبعة بولاق ١٣٢٤ هـ نشر دار صادر.

بما أمر به ن الإضجاع قيل له "قد صدقت الرؤيا" وهذا كله خارج عن المفهوم، ولا يظن بالخليل والذبيح أن يفهما من هذا الأمر ما ليس له حقيقة حتى يكون منهما التوهم، وأيضا لو صحت هذه الأشياء لما احتيج إلى الفداء^(١).

وأصح ما قيل في هذا ما ذكره القرطبي عن أهل السنة إن نفس الذبح لم يقع، وإنما وقع الأمر بالذبح قبل أن يقع الذبح، ولو وقع لم يتصور رفعه، فكان هذا من باب النسخ قبل الفعل، لأنه لو حصل الفراغ من امثال الأمر بالذبح ما تحقق الفداء.

أما قوله تعالى "قد صدقت الرؤيا" فمعناه: حققت ما نبهناك عليك، وفعلت ما أمكنك ثم امتنعت لما منعناك^(٢).

ويذكر الألوسي أن تصديقه عليه السلام الرؤيا يعنى توفيته حقها من العمل وبذل وسعه في إيقاعها وذلك بالعزم والإتيان بالمقدمات ولا يلزم فيه وقوع ما رآه بعينه^(٣).

مسألة نسخ الحكم قبل التمكن من فعله :

أما ما أشار إليه القرطبي من أن ذلك كان من باب النسخ قبل الفعل فإن العلماء حينما اختلفوا في تفسير الأمر الصادر لإبراهيم بذبح ابنه عن طريق الرؤيا تفرع عن هذا الاختلاف - كما يقول الرازي - مسألة من مسائل أصول الفقه، وهى أنه هل يجوز نسخ الحكم قبل حضور مدة الامثال، أو ما يعرف بنسخ الحكم قبل التمكن من فعله أو قبل دخول وقته^(٤).

فذهبت الأشاعرة وأكثر أصحاب الشافعى، وأكثر الفقهاء إلى جوازه ومنع من

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ١٠٣.

(٢) المصدر السابق ج ١٥ ص ١٠٢.

(٣) روح المعاني ج ٢٣ ص ١٣٠.

(٤) اتفق القائلون بجواز النسخ على جواز نسخ حكم الفعل بعد خروج وقته، واختلفوا في جواز ذلك قبل دخول الوقت (الأمدي: الإحكام في أصول الأحكام ج ٣ ص ١٧٩ نشر دار الحديث القاهرة).

ذلك أو قال بعدم جوازه جماهير المعتزلة، وأبو بكر الصيرفي من فقهاء الشافعية وكثير من فقهاء الحنفية^(١).

ويترتب على القول الأول في قضية الأمر بالذبح أن الله سبحانه وتعالى أمره بالذبح، ثم أنه تعالى نسخ هذا التكليف قبل حضور وقته.

ويترتب على القول الثاني أنه تعالى ما أمره بالذبح، وإنما أمره بمقدمات الذبح وهذه مسألة شريفة من مسائل باب النسخ^(٢).

فقد استدل أصحاب القول الأول أى من أجازوا نسخ الأمر قبل التمكن من الامتثال بأن الله تعالى أمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده، ثم أنه تعالى نسخه عنه قبل إقدامه عليه وذلك يفيد المطلوب كما يقول الرازي^(٣).

ويذكر الإمام الغزالي أن الدليل القاطع من جهة السمع على جوازه قصة إبراهيم عليه السلام ونسخ ذبح ولده عنه قبل الفعل وقوله تعالى وفديناه يذبح عظيم فقد أمر بفعل واحد ولم يقصر في البدار والامتثال ثم نسخ عنه^(٤).

(١) الإحكام في أصول الأحكام للآمدي ج ٣ ص ١٨٠ مفاتيح الغيب ج ٢٦ ص ١٥٥. وفيما يتعلق بالكثير من فقهاء الحنفية فإن صاحب كتاب فواتح الرحموت الذى أشرنا إليه آنفا يذكر أن رؤساء الحنفية كالإمام أبى الحسن الكرخي، وشيخ الإمام علم الهدى أبى منصور الماتريدي، والشيخ الإمام الجصاص أبى بكر الرازي، والقاضي الإمام أبى زيد الدبوس رحمهم الله تعالى قد منعوا جواز النسخ قبل التمكن من الامتثال ويرى أن قولهم هو القول الحق المتلقى بالقبول.

ولعل حججهم التي أوردوها تكون هي نفس التي احتج بها المعتزلة والتي سنوردها. بيد أن صاحب فواتح الرحموت ربما يكون قد بالغ كثيرا وتجراً إلى حد كبير في استعراض أدلته والنتيجة التي وصل إليها وقد سبق أن عرضنا لبعض جوانب منها. راجع فواتح الرحموت ص ٦٢ - ٦٧ الجزء الثاني طبع على هامش المستصفي من علم الأصول نشر دار صادر بيروت.

(٢) يقول الإمام الغزالي "يجوز عندنا نسخ الأمر قبل التمكن من الامتثال خلافا للمعتزلة وصورته أن يقول الشارع في رمضان حجوا في هذه السنة ثم يقول قبل يوم عرفة لا تحجوا فقد نسخت عنكم الأمر أو يقول اذبح ولذلك فيبادر في إحضار أسبابه فيقول قبل ذبحه لا تذبح فقد نسخت عنك الأمر لأن النسخ عندنا رفع للأمر أى لحكم الأمر ومدلوله وليس بيانا لخروج المنسوخ عن لفظ الأمر بخلاف التخصيص" راجع تفصيل القول في ذلك في كتابه المستصفي من علم الأصول الطبعة الأولى ببوالاق ١٣٢٤ هـ وصورتها ونشرتها دار صادر بيروت.

(٣) مفاتيح الغيب ج ٢٦ ص ١٥٥.

(٤) المستصفي من علم الأصول ج ١ ص ١١٥.

واستدل الإمام الشيخ محب الله بن عبد الشكور وهو من الحنفية الذين أجازوا النسخ قبل التمكن من مدة امتثاله استدل أيضا بقصة إبراهيم فقال (استدل بأمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده إسماعيل ولم يفعل ولا عصيان فالنسخ لازم^(١)).

ويقول الآمدي أن المجيزين قد احتجوا بقصة إبراهيم عليه السلام، وأمر الله بذبح ولده، ونسخه عنه يذبح الفداء، ودليل أمره بذلك أنه قد روى أنه تعالى قال لإبراهيم "اذبح ولدك" وروى (واحدك) والقرآن دل عليه بقوله "يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر) وأنه نسخ بذبح الفداء بقوله "وفديناه بذبح عظيم"^(٢).

ويذكر ابن حزم أن القائلين بإجازة النسخ قبل العمل به احتجوا بأمر الله تعالى إبراهيم بذبح ولده وقالوا: هذا بيان جلي أن الذي أمر به نسخ قبل أن يكون، لأن قوما قالوا: إنما أمر بتحريك السكين على حلق ولده فقط، فأبطل تعالى قولهم بقوله "إن هذا هو البلاء المبين" ولو لم يؤمر بقتله لما كان في تحريك السكين على حلقه بلاء فصح بقول إبراهيم عليه السلام، إنه إنما أمر بقتل ولده وإماتته بالذبح ثم نسخ ذلك قبل فعله، وأن هذا الاحتجاج لا ينفك منه أصلا^(٣).

وتقتضينا الأمانة العلمية أن نعرض لرأي المخالفين، والقائلين بعدم جواز هذا النسخ، وما يترتب على قولهم هذا فيما يخص قصة الخليل وأمر الله له بذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام. ♦

يقول الزمخشري وهو من كبار المعتزلة في تفسيره للآيات الخاصة بقصة الذبيح في سورة الصافات ما يلي:

فإن قلت: قد أوحى إلى إبراهيم صلوات الله عليه في المنام بأن يذبح ولده ولم يذبح، وقيل له صدقت الرؤيا وإنما كان يصدقها لو صح منه الذبح ولم يصح؟.

(١) فواتح الرحموت يشرح مسلم الثبوت في أصول الفقه ص ٦٤.

(٢) الإحكام في أصول الأحكام ج ٣ ص ١٨٠ - ١٨١.

(٣) الإحكام في أصول الأحكام ج ٤ ص ٥٠١ - ٥٠٢، نشر دار الجيل بيروت ١٩٨٧ م.

قلت: قد بذل وسعه وفعل ما يفعل الذابح من بطحه على شقه وإمرار الشفرة على حلقة، ولكن الله سبحانه جاء بما منع الشفرة أن تمضى فيه وهذا لا يقدر في فعل إبراهيم عليه السلام.

ألا ترى أنه لا يسمى عاصيا ولا مفرطا بل يسمى مطيعا ومجتهدا كما لو مضت فيه الشفرة وفرت الأوداج وأنهرت الدم^(١).

وليس هذا من ورود النسخ على المأمور به قبل الفعل ولا قبل أوان الفعل في شيء كما يسبق إلى بعض الأوهام حتى يشتغل بالكلام فيه^(٢).

ويرد عليه الإمام ناصر الدين أحمد بن المنير في كتابه "الانصاف فيما تضمنه الكشف من الاعتزال"^(٣) بقوله:

كل ما ذكر دندنة حول امتناع النسخ قبل التمكن من الفعل وتلك قاعدة المعتزلة، وأما أهل السنة فيثبتون جوازه، لأن التكليف ثابت قبل التمكن من الفعل فجاز رفعه كالموت.

وأیضا فكل نسخ كذلك لأن القدرة على الفعل عندنا مقارنة لا متقدمة ثم يثبتون وقوعه بهذه الآية.

ووجه الدليل منها أن إبراهيم عليه السلام أمر بالذبح بدليل - افعل ما تؤمر - ونسخ قبل التمكن بدليل العدول إلى الفداء، فمن ثم تحوم الزمخشري على أنه فعل غاية وسعه من بظه على شقه وإمرار الشفرة على حلقة، وإنما امتنعت بأمر من الله تعالى وغرضه بذلك أحد أمرين:

إما أن يكون الأمر إنما توجه عليه بمقدمات الذبح وقد حصلت لا بنفس الذبح. أو توجه الأمر بنفس الذبح وتعاطيه ولكن لم يتمكن^(٤).

(١) تفسير الكشف ج ٣ ص ٣٥٠ - ٣٥١.

(٢) المصدر السابق ص ٣٥١.

(٣) مطبوع مع الكشف.

(٤) الإنصاف ج ٣ ص ٣٤٩.

وكلا الأمرين لا يخلصه: أما قوله أمر بمقدمات الذبح فباطل بقوله - إنى أرى فى المنام أنى أذبحك - وقوله - افعل ما تؤمر -.

وأما قوله لم يتمكن لأن الشفرة منعت بأمر من الله تعالى بعد تسليم الأمر بالذبح.

فحاصله أنه لم يتمكن من الذبح المأمور به فكان النسخ إذا قبل التمكن وهو عين ما أنكره المعتزلة.

ولما لم يكن فى هذين الجوابين لهم خلاص لجأ بعضهم إلى تسليم أنه أمر بالذبح، ودعوى أنه ذبح ولكنه كان يلتحم وهو باطل لا ثبوت له، وسياق الآية يخل دعواه ويفل ثنياء^(١).

وهذا الذى ذكره الإمام أحمد واستنبطه من نص الزمخشري ليس ادعاء ولا تزييدا عليه وعلى المعتزلة وإنما هو تصوير أمين لما يقولون به.

فالأمر الأول الذى أشار إليه وهو أنهم اعتقدوا أن الله لم يأمر بالذبح وإنما أمر بمقدمات الذبح نجده مفصلا عند كل من القاضى عبد الجبار وأبى الحسين البصرى المعتزلى.

يقول القاضى عبد الجبار فى كتابه تنزيه القرآن عن المطاعن فى تعليقه على الآيات الواردة فى سورة الصفات بشأن هذا الموضوع: "فأما هذا عندنا فهو أمر بمقدمات الذبح وعظم ذلك عليه لظنه (يقصد الخليل إبراهيم) أنه سيؤمر باتمام الذبح لأن العادة جارية بأن الاضجاع وأخذ الآلة لا غرض فيه إلا الذبح فعلى هذا الوجه فعل ما أمر وما ظنه لم يؤمر به^(٢)."

وقال فى كتابه متشابه القرآن "إنه تعالى ذكر الذبح، وأراد به مقدماته من الاضجاع وأخذ المدينة، لأن فاعل ذلك من حيث يقرب إلى أن يكون ذابحا يوصف

(١) المصدر السابق.

(٢) تنزيه القرآن عن المطاعن ص ٣٥٤.

بهذه الصفة، كما قيل في مقدمات الموت من المرض المخوف: إنه موت فقال تعالى (كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية) وقد علمنا أن الوصية لا تكون منه مع وقوع الموت^(١).

وقوله تعالى من بعد (قد صدقت الرؤيا) ولا وقع الذبح وإنما فعل ما قلناه يدل على أن المراد ما قلناه، فإذا صح ذلك وقد فعل إبراهيم عليه السلام ما أريد منه ثبت أن الذبح الذي لم يفعله ليس بداخل فيما أمر به ولا فيما أريد منه^(٢).

وجاء في كتاب المعتمد لأبي الحسين البصري المعتزلي أن إبراهيم لم يفعل ما فعله إلا وقد أمر بشيء: ومعناه أنه أمر بالذبح، ولا رؤية الذبح في المنام أمر له بالذبح، فيحتمل أن يكون أمر بالذبح، ويحتمل أن يكون أمر بما فعله وامثله ولهذا قال الله عز وجل "قد صدقت الرؤيا" ولو كان قد فعل بعض ما أمر به لكان قد صدق بعض الرؤيا، وقول إسماعيل "افعل ما تؤمر" إنها يفيد الأمر في المستقبل^(٣).

ثم يقول وقوله "أن هذا هو البلاء المبين" لا يمنع ما ذكرناه لأن اضجاع ابنه وأخذ المدينة مع غلبة الظن بأنه يؤمر بالذبح بلاء عظيم، وإنما فدى بالذبح ما كان يتوقعه من الأمر بالذبح^(٤).

أما الأمر الثاني وهو أن الخليل قام بالذبح لكنه لم يتمكن، أو أنه أمر بصورة الذبح فهو أيضا مذكور ضمن أقوال المعتزلة:

يقول القاضي عبد الجبار "وقد قيل إنه فعل الذبح لكنه عز وجل كان صرفه عن موضع الذبح، وكان تعالى يلهمه فعل ما يفعله الذابح وبقي الذبيح حيا لما فعله الله تعالى^(٥).

(١) متشابه القرآن ص ٥٨٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المعتمد في أصول الفقه ج ١ ص ٣٧٩ دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

(٤) المصدر السابق.

(٥) تنزيه القرآن عن المطاعن ص ٣٥٥.

وجاء في المعتمد "وقيل إنه أمره بالذبح، والله سبحانه جعل على عنقه صفيحة من حديد، فكان إذا أمر إبراهيم السكين، لم يقطع شيئاً من الحلق، ثم يقول "وهذا تأويل سائغ، إذا قلنا إنه أمر بها يجري مجرى الذبح من إمرار السكين، فأما إذا قيل إنه أمر بالذبح على الحقيقة فإنه لا يسوغ، لأنه تكليف ما لا يقال.

ثم يذكر أنه قد قيل أيضاً إنه أمر بصورة الذبح - وهو القطع - وإنه كان كلما قطع موضعاً من الحلق وتعداه إلى غيره، وصل الله سبحانه ما تقدم قطعه^(١).

وإذا كان هذا هو ما قاله علماء المعتزلة في هذا الأمر فإن كلا من الإمام الغزالي والإمام الرازي ومن بعدهما الإمام الآمدي قد صوروا مذهبهم هم ومن قال بقولهم خير تصوير وصاغوا أدلتهم صياغة دقيقة وعرضوها عرضاً أميناً ثم قاموا بالكر عليهم وإبطال مذهبهم.

يقول حجة الإسلام "ثم الدليل القاطع على جوازه - يقصد النسخ قبل التمكن من الامتثال - قصة إبراهيم عليه السلام ونسخ ذبح ولده عنه قبل الفعل، وقوله تعالى وفديناه بذبح عظيم فقد أمر بفعل واحد ولم يقصر في البدار والامتثال ثم نسخ عنه^(٢).

وقد اعتاص هذا على القدريّة - ويقصد المعتزلة - حيث تعسفوا في تأويله وتخربوا فرقاً وطلبوا الخلاص من خمسة أوجه:
أحدها: أن ذلك كان مناماً لا أمراً.

الثاني: أنه كان أمراً لكن قصد به تكليفه العزم على الفعل لامتحان سره في صبره على العزم، والذبح لم يكن مأموراً به.

الثالث: أنه لم ينسخ الأمر لكن قلب الله تعالى عنقه نحاساً أو حديداً فلم ينقطع التكليف لتعذره.

(١) المعتمد في أصول الفقه ج ١ ص ٣٧٩ - ٣٨٠ وقد سبق أن بينا عدم صحة ذلك من خلال أقوال المفسرين.

(٢) المستصفى من علم الأصول ج ١ ص ١١٥.

الرابع: المنازعة في المأمور وأن المأمور به كان هو الاضجاع والتل للجبين وإمرار السكين دون حقيقة الذبح.

الخامس: جحود النسخ وأنه ذبح امتثالا فالتأم واندمل^(١).

ثم يذكر الإمام الغزالي أن الذاهبين إلى هذا التأويل اتفقوا على أن إسماعيل ليس بمذبوح واختلفوا في كون إبراهيم عليه السلام ذابحا!

فقال قوم هو ذابح للقطع، والولد غير مذبوح لحصول الالتئام، وقال قوم: ذابح لا مذبوح له محال^(٢).

ثم يبين أن كل ذلك تعسف وتكلف ويرد عليه بما يلي:

أما الأول وهو كونه مناما فمنام الأنبياء جزء من النبوة وكانوا يعرفون أمر الله تعالى به فلقد كانت نبوة جماعة من الأنبياء عليهم السلام بمجرد المنام، ويدل على فهمه الأمر قول ولده افعل ما تؤمر، ولو لم يؤمر لكان كاذبا وأنه لا يجوز قصد الذبح والتل للجبين بمنام لا أصل له^(٣).

وقد رد الآمدى على من قال أنه كان مناما لا أصل له، فلا يثبت به الأمر بقوله "أن منام الأنبياء فيما يتعلق بالأوامر والنواهي، وحى معمول به، وأكثر وحى الأنبياء كان بطريق الأنبياء، وقد روى عن النبي ﷺ أن وحيه كان ستة أشهر بالمنام ولهذا قال عليه السلام "الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة"^(٤) فكانت نسبة الستة أشهر من ثلاثة وعشرين سنة من نبوته، كذلك. ويدل على ذلك قوله ﷺ "ما احتلم نبي قط" يعنى ما تشكل له الشيطان في المنام على الوجه الذى يتشكل لأهل الاحتلام، كيف وأنه لو كان ذلك خيالا، لا وحيا، لما جاز لإبراهيم

(١) المصدر السابق.

(٢) المستصفى ج ١ ص ١١٥.

(٣) المصدر السابق.

(٤) ورد هذا الحديث في الصحيحين وغيرهما من كتب السنة.

العزم على الذبح المحرم بمنام لا أصل له، ولما سماه بلاء مبينا ولما احتاج إلى الفداء^(١).

أما الذين سلموا أن منامه أصل يعتمد عليه، لكنهم لم يسلموا بأنه كان قد أمر، وذكروا أن قول ولده: افعل ما تؤمر، ليس فيه دلالة على أنه كان قد أمر، ولهذا علقه على المستقبل، ومعناه افعل ما يتحقق من الأمر في المستقبل. أما هؤلاء فإن الآمدى يرد عليهم بقوله إن قوله "افعل ما تؤمر" وإن لم يكن ظاهرا في الماضي، لكنه قد يرد ويراد به الماضي، ولهذا فإنه لو قال القائل "قد أمرني السلطان بكذا" فإنه يصح أن يقال له "افعل ما تؤمر" أى ما أمرت به، وأنت مأمر، ويجب الحمل عليه ضرورة حمل الولد على إخراجه إلى الصحراء، وأخذ آلات الذبح وترويع الولد، فإن ذلك كله مما يحرم من غير أمر ولا إذن في ذلك^(٢).

وأما الوجه الثانى من الوجوه التى ذكرها المعتزلة وهو أنه كان مأمورا بالعزم اختبارا فهو محال لأن علام الغيوب لا يحتاج إلى الاختبار، ولأن الاختبار إنما يحصل بالإيجاب فإن لم يكن إيجابا لم يحصل اختبار.

وقولهم العزم هو الواجب محال لأن العزم على ما ليس بواجب لا يجب بل هو تابع للمعزوم ولا يجب العزم ما لم يعتقد وجوب المعزوم عليه، ولو لم يكن المعزوم عليه واجبا لكان إبراهيم عليه السلام أحق بمعرفته من القدرية، كيف وقد قال أنى أرى فى المنام أنى أذبحك فقال له ولده افعل ما تؤمر يعنى الذبح، وقوله تعالى وتله للجبين استسلام لفعل الذبح لا للعزم^(٣).

وأما الوجه الثالث وهو أن الاضجاع بمجرد هو المأمور به فهو محال إذ لا يسمى ذلك ذبحا ولا هو بلاء ولا يحتاج إلى الفداء بعد الامتثال^(٤).

(١) الإحكام فى أصول الأحكام ج ٣ ص ١٨٢.

(٢) الإحكام ج ٣ ص ١٨٢ - ١٨٣.

(٣) المستصفى ج ١ ص ١١٥ - ١١٦.

(٤) المستصفى ج ١ ص ١١٦.

وقد صاغ الإمام الرازى هذين الوجهين الثانى والثالث اللذين عرضهما الإمام الغزالى بقوله "وقالت المعتزلة لا نسلم أن الله أمره بذبح الولد بل نقول إنه تعالى أمره بمقدمات الذبح، ويدل عليه: أنه ما أتى بالذبح وإنما أتى بمقدمات الذبح، ثم أن الله تعالى أخبر عنه بأنه أتى بما أمر به بدليل قوله تعالى (ونادينه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا).

وذلك يدل على أنه تعالى إنما أمره فى المنام بمقدمات الذبح لا بنفس الذبح وتلك المقدمات عبارة عن اضجاعه ووضع السكين على حقه، والعزم الصحيح على الإتيان بذلك الفعل إن ورد^(١).

وقد أجاب الرازى عن ذلك بأن الله أمره بذبح الولد لأنه عليه السلام قال لولده أنى أرى فى المنام إنى أذبحك فقال الولد افعل ما تؤمر وهذا لا يدل على أن عليه السلام كان مأمورا بمقدمات الذبح بل بنفس الذبح.

ثم إنه لو أتى بمقدمات الذبح وأدخلها فى الوجود، فحينئذ يكون قد أمر بشيء وقد أتى به، وفى هذا الموضع لا يحتاج إلى الفداء، لكنه احتاج إلى الفداء بدليل قوله تعالى (وفديناه بذبح عظيم) فدل هذا على أنه لم يأت بالمأمور به، وقد ثبت أنه أتى بكل مقدمات الذبح، وهذا يدل على أنه تعالى كان قد أمره بنفس الذبح وإذا ثبت هذا فنقول إنه تعالى نسخ ذلك الحكم قبل إثباته وذلك يدل على المقصود^(٢).

وأما الوجه الرابع وهو إنكار النسخ وأنه امتثل لكن انقلب عنقه حديدا، ففات التمكن فانقطع التكليف فهذا لا يصح على أصولهم - أى المعتزلة - لأن الأمر بالمشروط لا يثبت عندهم، بل إذا علم الله تعالى أنه يقلب عنقه حديدا فلا يكون أمرا بما يعلم امتناعه فلا يحتاج إلى الفداء فلا يكون بلاء فى حقه^(٣).

ويذكر الآمدى أن قولهم أن الذبح حقيقة لم يوجد وإنما روى أن الله تعالى منعه

(١) مفاتيح الغيب ج ٢٦ ص ١٥٥.

(٢) راجع المصدر السابق.

(٣) المستصفى ج ١ ص ١١٦.

من الذبح بأن جعل على عنقه صفيحة من نحاس أو حديد مانعة من الذبح لا أن ذلك كان بطريق النسخ، يذكر أن هذا لا يصح من المعتزلة لأنهم لا يرون التكليف بما لا يطاق، وهذا تكليف بما لا يطاق، كيف وإنه لو كان كما ذكره لنقل أيضا واشتهر، لكونه من المعجزات العظيمة^(١).

وأما الوجه الخامس وهو أن إبراهيم قد فعل الذبح امتثالا لكنه التأم بمعنى أنه قطع الحلقوم إلا أنه كلما قطع جزءا أعاد الله التأليف إليه، فلهذا السبب لم يحصل الموت.

فقد رد عليه الإمام الغزالي بقوله "إن ذلك محال لأن الفداء كيف يحتاج إليه بعد الالتئام ولو صح ذلك لاشتهر وكان ذلك من آياته الظاهرة، ولم ينقل ذلك قط وإنما هو اختراع من القدرية"^(٢).

ويقول الرازي في ذلك "أن قولهم كلما قطع إبراهيم عليه السلام جزءا أعاد الله تعالى التأليف إليه باطل لأن إبراهيم عليه السلام لو أتى بكل ما أمر به لما احتاج إلى الفداء"^(٣).

فإن قيل أليس الله قد قال "قد صدقت الرؤيا" قلنا معناه أنك عملت في مقدماته عمل مصدق بالرؤيا والتصديق غير التحقيق والعمل^(٤).

ثم هناك وجه آخر يذكر الرازي أنه الوجه الذي عليه تعويل القوم وهو أنه تعالى لو أمر شخصا معيناً بإيقاع فعل معين في وقت معين، فهذا يدل على أن إيقاع ذلك الفعل في ذلك الوقت قبيح، فلو حصل هذا النهي عقيب ذلك الأمر لزم أحد أمرين: لأنه تعالى إن كان عالما بحال ذلك الفعل لزم أن يقال أنه أمر بقبيح أو نهى عن الحسن، وإن لم يكن عالما به لزم جهل الله تعالى وأنه محال^(٥).

(١) الإحكام ج ٣ ص ١٨٤.

(٢) المستصفى ج ١ ص ١١٦.

(٣) مفاتيح الغيب ج ٢٦ ص ١٥٦.

(٤) المستصفى ج ١ ص ١١٦.

(٥) مفاتيح الغيب ج ٢٦ ص ١٥٥.

والجواب أن قولهم هذا بناء على أن الله تعالى لا يأمر إلا بما يكون حسنا في ذاته ولا ينهى إلا عما يكون قبيحا في ذاته، وذلك بناء على تحسين العقل وتقييحه وهو باطل.

وأیضا فهب أنا نسلم بذلك إلا أنا نقول لم لا يجوز أن يقال إن الأمر بالشئ تارة يحسن لكون المأمور به حسنا، وتارة لأجل أن ذلك الأمر يفيد صحة مصلحة من المصالح وإن لم يكن المأمور به حسنا^(١).

ألا ترى أن السيد إذا أراد أن يروض عبده، فإنه يقول له إذا جاء يوم الجمعة فافعل الفعل الفلاني، ويكون ذلك الفعل من الأفعال الشاقة، ويكون مقصود السيد من ذلك الأمر ليس أن يأتي ذلك العبد بذلك الفعل، بل أن يوطن العبد نفسه على الانقياد والطاعة.

ثم أن السيد إذا علم منه أنه وطن نفسه على الطاعة فقد يزيل الألم عنه ذلك التكليف، فهكذا ههنا، فما لم تقيموا الدلالة على فساد هذا الاحتمال لم يتم كلامكم^(٢).

وكان الإمام الغزالي قد ذكر من قبل الإمام الرازي أن المعتزلة قد أحوالوا النسخ قبل التمكن بدعوى أنه يؤدي إلى أن يكون الشئ الواحد في وقت واحد على وجه واحد مأمورا منهيًا، حسنا قبيحا، مكروها مرادا، مصلحة مفسدة.

ثم يذكر أن جميع ما يتعلق بالحسن والقبح والصلاح والفساد قد قام بإبطاله ولكن يبقى لهم مسلكان:

المسلک الأول: أن الشئ الواحد في وقت واحد كيف يكون منهيًا عنه ومأمورا به على وجه واحد^(٣).

(١) مفاتيح الغيب ج ٢٦ ص ١٥٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المستصفى ج ١ ص ١١٣.

وفى الجواب عن هذا المسلك طريقتان :

الطريقة الأولى: أنا لا نسلم أنه منهى عنه على الوجه الذى هو مأمور به بل على وجهين، كما ينهى عن الصلاة مع الحدث ويؤمر بها مع الطهارة، وينهى عن السجود للصنم، ويؤمر بالسجود لله عز وجل لاختلاف الوجهين^(١).

الطريقة الثانية: أن لا نلتزم إظهار اختلاف الوجه لكن نقول يجوز أن يقول ما أمرناك أن تفعله على وجه فقد نهيناك عن فعله على ذلك الوجه ولا استحالة فيه إذ ليس المأمور حسنا في عينه أو لوصف هو عليه قبل الأمر به حتى يتناقض ذلك، ولا المأمور مرادا حتى يتناقض أن يكون مرادا مكروها بل جميع ذلك من أصول المعتزلة وقد أبطلناها^(٢).

المسلك الثانى الذى سلكه المعتزلة هو:

قولهم الأمر والنهى عندكم كلام الله تعالى القديم، وكيف يكون الكلام الواحد أمرا بالشئ الواحد ونهيا عنه فى وقت واحد، بل كيف يكون الراجع والمرفوع واحدا والناسخ والمنسوخ كلام الله تعالى.

ويرد الإمام الغزالى على قولهم هذا بأنه إشارة إلى إشكالين:

أحدهما: كيفية اتحاد كلام الله تعالى ولا يختص ذلك بهذه المسألة.

وأما الثانى: فهو أن كلامه واحد وهو أمر بالشئ ونهى عنه، ولو علم المكلف ذلك دفعة واحدة لما تصور منه اعتقاد الوجوب والعزم على الأداء ولم يكن ذلك منه بأولى من اعتقاد التحريم والعزم على الترك فنقول:

كلام الله تعالى فى نفسه واحد وهو بالإضافة إلى شئ أمر، وبالإضافة إلى شئ خبر ولكنه إنما يتصور الامتحان به إذا سمع المكلف كليهما فى وقتين.

ولذلك شرطنا التراخى فى النسخ ولو سمع كليهما فى وقت واحد لم يجوز، وأما

(١) راجع بيانه الاختلاف فى كيفية اختلاف الوجهين ج ١ ص ١١٣.

(٢) المستصفى ج ١ ص ١١٤.

جبريل عليه السلام فإنه يجوز أن يسمعه في وقت واحد إذ لم يكن هو مكلفا ثم يبلغ الرسول ﷺ في وقتين إن كان ذلك الرسول داخلا تحت التكليف فإن لم يكن فيبلغ في وقت واحد لكن يؤمر بتبليغ الأمة في وقتين فيأمرهم مطلقا بالمسألة وترك قتال الكفار ومطلقا باستقبال بيت المقدس في كل صلاة، ثم ينهاهم عنها بعد ذلك فيقطع عنهم حكم الأمر المطلق كما يقطع حكم العقد بالفسخ^(١).

ثم يقول الإمام الغزالي "ومن أصحابنا من قال الأمر لا يكون أمرا قبل بلوغ المأمور فلا يكون أمرا ونهيا في حالة واحدة بل في حالتين فهذا أيضا يقطع التناقض ويدفعه"^(٢).

فإن قيل: فإذا علم الله تعالى أنه سينهى عن هذا الأمر فما معنى أمره بالشئ الذي يعلم انتفاءه قطعا لعلمه بعواقب الأمور.

ويجيب الإمام الغزالي "لا يصح ذلك أن كانت عاقبة أمره معلومة للمأمور، أما إذا كان مجهولا عن المأمور معلوما عند الأمر أمكن الأمر لامتحانه بالعزم

(١) المستصفي ج ١ ص ١١٤ - ١١٥.

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ١١٥.

ويذكر الإمام ابن حزم أن بعض المعارضين لجواز النسخ قبل التمكن من الفعل يقولون: لو جاز النسخ قبل العمل لجاز قبل الاعتقاد ويرد عليهم قائلًا بأن هذا قياس، والقياس باطل (عند ابن حزم) ولو كان القياس حقا لكان هذا فاسدا، إذ ليس سقوط الفعل موجبا لسقوط الاعتقاد، وقد يعتقد وجوب الشئ وتصحيحه من لا يفعله من المسلمين العصاة، وقد يفعله من لا يعتقد من المنافقين والمرائين، هذا أمر يعلم بالمشاهدة، فبطل أن يكون الاعتقاد مرتبطا بالعمل، وبطل ما موه به هذا المعترض من أنه لو جاز النسخ قبل العمل لجاز قبل الاعتقاد.

فإن قالوا: لو جاز نسخ الشئ قبل العمل به لكان اعتقاده حسنا وطاعة، وفعله قبيحا ومعصية وهذا محال.

فالجواب: إن هذا شغب ضعيف لأنهم جمعوا بين حكم زمانين مختلفين، وإنما يكون اعتقاد الشئ حقا - إن فعل - إذا لم ينسخ، فأما إذا نسخ فإنما الواجب اعتقادا أنه معصية أن فعل، واعتقاد فعل، قيل لهم: الاعتقاد فعل النفس منفردة لا شركة للجسد معها فيه، والعمل فعل النفس بتحريك الجسد، فهو شئ آخر غير الاعتقاد وقد فرق بينهما رسول الله ﷺ بقوله (إنما الأعمال بالنيات) فجعل النية وهى الاعتقاد غير العمل (الإحكام ج ٤ ص ٥٠١).

والاشتغال بالاستعداد المانع له من أنواع اللهو والفساد حتى يتعرض بالعزم للثواب وبتركه للعقاب^(١).

يذكر الإمام القشيري أن الله ستر على الخليل وابنه ما أريد منهما في حال البلاء، وإنما كشف عنهما بعد مضي وقت المحنة لئلا يبطل معنى الابتلاء، وهكذا يكون الأمر عند البلاء، تنسد الوجوه في الحال، وكذلك كانت حالة النبي ﷺ في حال حديث الإفك، وكذلك حالة أيوب عليه السلام.

وإنما يتبين الأمر بعد ظهور آخر المحنة وزوالها، وإلا لم تكن حينئذ محنة إلا أنه يكون في حال البلاء إسبال يولى مع مخاطرة المحنة، ولكن مع استعجام الحال واستبهامه إذ لو كشف الأمر على صاحبه لم يكن حينئذ بلاء^(٢).

وهكذا وجدنا أن الأشاعرة وغيرهم من علماء الأصول قد استدلوا بقصة الخليل والآيات الواردة فيها على صحة النسخ قبل التمكن من الفعل خلافا للمعتزلة وغيرهم والدلالة من هذا - كما يقول ابن كثير - ظاهرة لأن الله تعالى شرع لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ذبح ولده ثم نسخه عنه وصرفه إلى الفداء وإنما كان المقصود من شرعه أولاً إثابة الخليل على الصبر على ذبح ولده فسارع إلى ذلك مستسلماً لأمر الله منقاداً لطاعته ولهذا قال تعالى "وإبراهيم الذي وفى"^(٣).

فالسبب في هذا التكليف - كما قال المحققون - كمال طاعة إبراهيم لتكاليف الله تعالى فلما كلفه الله تعالى بهذا التكليف الشاق الشديد وظهر منه كمال الطاعة وظهر من ولده كمال الطاعة والانقياد، لا جرم قال هل صدقت الرؤيا يعنى حصول المقصود من تلك الرؤيا^(٤).

فإن قال قائل: عرفونا ما الذى أراد الله تعالى منا إذا أمرنا بالشىء ثم نسخه قبل

(١) المستصفى من علم الأصول ج ١ ص ١١٤.

(٢) لطائف الإشارات المجلد التالى ص ٢٣٩ - ٢٤٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم ج ٤ ص ١٦.

(٤) التفسير الكبير ج ٢٦ ص ١٥٧.

فعله أراد العمل به ثم بدا له قبل فعله؟ أو أراد ألا يعمل به؟ والشئ إذا لم يردّه تعالى فقد سخطه وكرهه ولم يرضه، فعلى قولكم إنه تعالى يأمرنا بما يكره ويسخط ويلزمننا ما لا يرضى كونه منا.

يجيب على ذلك ابن حزم فيقول: إنه تعالى أمر بما أمر من ذلك ولا مراد له إلا الانقياد من المأمور فقط، ولم يرد قط وقوع الفعل، ونهانا عنه قبل أن يكون منا، ولا يسأل عما يفعل.

ولسنا ننكر أن يأمرنا تعالى الآن بأمر قد علم أنه بعد مدة ينهى عنه ويسخطه، وإنما الذى ننكر أن يأمر تعالى بما هو ساخط له فى حين أمره، فهذا لا سبيل إليه.

وأما أن يأمرنا بأمر قد علم أنه سينهاه عنه فى ثانى الأمر، ويسخطه بعد مرور وقت الأمر به، فهذا واجب، وهذه صفة كل نسخ وكل أمر مرتبط بكل وقت^(١).

وإذا كان الله سبحانه قد أمر إبراهيم بالذبح ولم يرد وقوعه فإن الأشاعرة قد احتجوا بهذه القصة على أن الله تعالى قد يأمر بما لا يريد وقوعه.

والدليل عليه أنه أمر بالذبح وما أراد وقوعه، لأن الأشاعرة يعتقدون كما قال الرازى أن كل ما أراد الله وقوعه فإنه يقع، وحيث لم يقع هذا الذبح علمنا أنه تعالى ما أراد وقوعه.

وأما عند المعتزلة فلأن الله تعالى نهى عن ذلك الذبح بعد أن أمر به والنهى عن الشئ يدل على أن الناهى لا يريد وقوعه فثبت أنه تعالى أمر بالذبح، وثبت أنه تعالى ما أراداه، وذلك يدل على أن الأمر قد يوجد بدون الإرادة^(٢).

وعلى ضوء ما عرضناه من آراء ومذاهب وبناء على ما قرره الأشاعرة وغيرهم من أن الله سبحانه قد أمر الخليل بأن يذبح ابنه لكنه لم يرد وقوعه ونسخه قبل أن

(١) الإحكام فى أصول الأحكام ج ٤ ص ٥٠٢.

(٢) مفاتيح الغيب ج ٢٦ ص ١٥٦.

يقوم به وأمره بالفداء وبين أن هذا الأمر كان نوعاً من البلاء كما سبق أن أشرنا إلى ذلك.

أفلا يجوز لنا بناء على ما انتهينا إليه أن نرجح - والله أعلم - أن الله سبحانه أراد بأمره لإبراهيم بذبح ابنه - بجانب الابتلاء - القضاء على ظاهرة القرابين البشرية التي كانت سائدة عند الشعوب الوثنية والتي كان الناس يقدمونها إلى الآلهة التي يعبدونها بإيعاز من الكهنة. وكانت قصة الخليل وابنه إسماعيل عليهما السلام كما عرضنا لعدة جوانب منها بمثابة القضاء العملي على تلك العادة.

إننى أقول هذا وأنا فى شدة الخوف والرهبه من الله العزيز الحكيم على اقتحامى مجال حكمته وعذرى أننى بشر وأن رأى قابل للخطأ والصواب.

والذى يشجعنى على هذا القول أن عدداً من الكتاب والباحثين قد قالوا بهذا الذى ملت إليه وانتهيت إلى ترجيحه لكنى لم أطلع على قولهم هذا إلا بعد أن جال هذا الخاطر فى ذهنى وتبلورت تلك الفكرة فى رأسى.

يقول الدكتور بيومى مهران "ولما كان الأنبياء هم الأسوة الحسنة التى يحتذى حذوها كافة الناس وخاصتهم، فإن الله جلت قدرته أراد أن يجعل من خليله قدوة حسنة، ومثلاً أعلى لأرفع صور الإيمان وأجلها فى تاريخ الإنسانية.

وفى الوقت نفسه، أعطى الإنسانية نفسها مثلاً حياً فى إبراهيم وولده إسماعيل، تمهيداً لمنع هذه العادة البربرية، فيأمره بذبح ولده، ثم يفتديه بكبش عظيم^(١).

ويعتقد الدكتور رشيد الناضورى أن حادثة منام إبراهيم الذى رأى فيه التضحية بابنه قرباناً لله سبحانه وتعالى ثم اقتداه ربه بكبش عظيم.

يعتقد أن تلك الحادثة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتلك التقاليد السومرية والسامية

(١) مركز المرأة فى الحضارة العربية القديمة ص بحث مقدم إلى مجلة كلية العلوم الاجتماعية بجامعة لإمام محمد بن سعود الإسلامية ص ٢٤٥.

الخاصة بظاهرة التضحية البشرية والتي كانت تمارس في بعض مجتمعات الشرق
الأردني القديم والحث على إبطال تلك التقاليد واستبدالها بالتضحية الحيوانية^(١).

وجاء في قاموس الكتاب المقدس أن إبراهيم كاد أن يقدم ابنه ذبيحة ولكن الله
منعه من تقديم هذه الذبيحة، فقدم إبراهيم كبشاً عوضاً عنه وبهذا أظهر الله
لإبراهيم في وضوح وإبانة أنه لا يطلب تقديم الأولاد ذبائح كما كان يفعل
الكنعانيون في ذلك الحين^(٢).

(١) المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني ص ١٧٤: مصر، سومر، فلسطين، عيلام، المغرب دار
مكتبة الجامعة العربية بيروت ١٣٨٨هـ / ١٩٦٩م.

(٢) قاموس الكتاب المقدس ص ٦٦.

ويذكر عباس العقاد أن إبراهيم الخليل جاء في مفترق الطرق بين استباحة القرابين البشرية وبين
تحریمها.. ولكنها لم تحرم لأنها أعلى من أن تقدم، وإنما حرمت لأن الله أرحم وأكرم.. ورأى إبراهيم
في رؤياه أنه يؤمر بذبح ابنه، أعز ما في الحياة عنده، رأى ذلك وهو يعلم أن الأرباب تتقاضى عبادتها
مثل هذه الضحية، وأن تقرب الأوائل أو الأبيكار من الأولاد والأوائل من كل نتاج حق مفروض
على كل أسرة لرب الأوثان والأصنام.. أياكون إبراهيم أبخل على ربه من عابد الوثن؟ أياكون الوثن
أحق بالضحية من خالق الأرض والسماء؟ أيرتاب إبراهيم في أمر الله وهو ينظر إلى شريعة العبادة من
حواله وإن كانت شريعة شر وضلال.

إن العصيان هنا نزول بالإله الأعلى عن مرتبة الأوثان والأصنام فلتكن الطاعة تنزيها للإله الأعلى عن
ذلك الإسفاف، ويفعل الإله بالآباء والبنين ما يريد.

إن ذبح الأب وليده نقيض الرحمة، ولكن إيمان الإنسان بعقيدة أعز عليه من ولده.. ومن نفسه غنيمة
أقوم وأعظم من رحمة الآباء للأبناء، فلا ينبغي أن يضن الإنسان بشيء في سبيل هذه العقيدة، ولا
ينبغي أن يبطل القربان بالإنسان لأن الله لا يستحقه كما استحقته أوثان الجهالة، بل يبطل لأن الله
أرحم وأعظم من أن يتقبله فهو أعظم وأكرم من الأوثان.

وكلام الأستاذ العقاد في مجموعه متفق مع ما ذهبنا إلى ترجيحه لولا مسحة التطور البادية على قوله
والتغلغل في فكره فهو يذكر في بداية كلامه أن إبراهيم جاء في مفترق الطرق بين استباحة القرابين
البشرية وبين تحریمها ويعقب على كلامه بقوله "وارتفاع الإنسان بهذه العبادة هو ارتفاع آخر يضاف
إلى ارتفاعه بالتوحيد والتنزيه" وهنا كما نبهنا من قبل يكون مكمناً للخطر حيث يرى تطور العقائد
والشعائر ويرجعها إلى الإنسان نفسه (إبراهيم أبو الأنبياء ص ١٩٨ - ١٩٩).

وقريب من هذا ما يذكره د/ إيفار ليسنر عن الخليل إبراهيم حيث يرجع إليه الفضل من الناحية
التاريخية، في التطور الهائل الذي حدث بإحلال قرابين الكباش محل المحرقات البشرية (الماضي الحي
ص ١٣٩)، ولاشك أن هذا الكلام وإن كان يتفق معنا في ظاهره إلا أنه بعيد في مغزاه وهدفه عما
نريد أن نقوله ومخالف لما نبغى ترجيحه ونميل إليه.